مركز دراسات الوحدة العربية

سلسلة التراث القومي

الاعمال القومية لساطع الحصري: (٣)

صفحات من الماضي القريب

ابو خلدون ساطع الحصري

صفحـــات

من المـاضي القـريب

مركز دراسات الوحدة العربية

سلسلة التراث القومي

الاعمال القومية لساطع الحصري: (٣)

صفحات من الماضي القريب

ابو خلدون ساطع الحصري

« الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة
عن اتجاهات يتبناها مركز دراسات الوحدة العربية »

مركز دراسات الوحدة العربية

بناية « سادات تاور » ـ شارع ليون ـ ص. ب. : ٦٠٠١ ـ ١١٣ بيروت ـ لبنان

تلفون ٨٠١٥٨٢ ـ ٨٠١٥٨٧ ـ ٨٠٢٢٣٤ ـ برقياً : « مر عربي »

تلكس : ٢٣١١٤ مارابي

حقوق نشر الطبعة الخاصة محفوظة للمركز

طبعة خاصة(*)

بيروت : كانون الاول/ ديسمبر ١٩٨٤

(*) نشر هذا الكتاب لأول مرة عام ١٩٤٨ .

المحتويـــــات

مقدمة ٧

فيصل الكبير ٩

لو لم يُخرج الفرنسيون الملك فيصل من سورية ١٩

حول انهيار فرنسة ٢٥

بين القوى المادية والقوى المعنوية ٤٣

أصول ستر الحقائق ٤٧

اختلاف الآراء باختلاف وجهات النظر ٥٣

جامعة الدول العربية ٦٧

لا داعي لليأس ٧١

مقدمــة

هذه طائفة من الآراء والأحاديث والمحاضرات كُتِبت أو ألقيت أو نشرت . . في أوقات مختلفة . . في بغداد ، أو بيروت ، أو دمشق أو القاهرة . . .

ولقد رغبت إليّ « دار العلم للملايين » أن أجمعها وأنشرها بين دفتي كتاب ، فلم أرَ بداً من الموافقة على ما أرادت .

إن هذه الآراء والأحاديث تحوم حول بعض الصفحات من الماضي القريب . . ذلك الماضي الذي تباعد عنا بعض البعد ، دون أن يمضي إلى حدود التاريخ البحت . . ذلك الماضي الذي يكاد يكون حياً إلى الآن . . . لأن الذكريات التي تركها لا تزال حادة حية ، ولأن عدداً كبيراً ممن شهدوا وقائعه ـ بل وعدداً غير قليل ممن تأثروا بتلك الوقائع وأثروا فيها ـ لا يزالون أحياء . .

إن هذه الآراء والأحاديث ، تحوم حول بعض الصفحات من ذلك الماضي القريب . . . وقد يسألني سائل : أهي سياسية أم تاريخية ، اجتماعية أم فلسفية . . ؟ وأما أنا ، فلا أرى داعياً لنعتها بأحد هذه النعوت ، على وجه التخصيص .

أفلم يقل أحد المفكرين ـ منذ عقود من السنين ـ « إن التاريخ هو السياسة في الماضي ؟ والسياسة هي التاريخ في الحاضر » أفلم تكن جميع القضايا التي تعالجها السياسة ويسجلها التاريخ ، من مظاهر « الحياة الاجتماعية » ، بمعناها الشامل العام ؟ أو لم تتلخص مهمة « الفلسفة » في « اقتطاف أينع أزهار الفكر وأنضج أثمار العلم ، بغية مزجها واستقطارها ، لتركيب أثمن العصارات وأذكى الأكاسير ؟».

فما الداعي لحصر كل بحث من الأبحاث في حدود خزانة من هذه الخزانات

المتفرقة التي اعتدنا تسمية كل واحدة منها باسم خاص ؟ إن شؤون الحياة معقدة ومعضلة جداً ، وشؤون الحياة الاجتماعية أشد تعقداً وأكثر إعضالاً من جميع ضروب الحياة ، بوجه عام . وفي هذه الحياة الاجتماعية من الشؤون والمسائل المتشابهة ما تأبى طبيعته التفرق والتوزع على الخزانات التي ذكرنا أسماءها آنفاً .

ولهذا السبب ، لم أرَ أن أنعت هذه الآراء ، والأحاديث ، بالسياسية ، أو التاريخية أو الاجتماعية أو الفلسفية . . . إنها آراء وأحاديث قيلت وكتبت في مناسبات مختلفة ؛ ولكنها استهدفت في جميع هذه المناسبات غاية واحدة ، هي : تفنيد وتصحيح بعض الأخطاء الشائعة ، مع تحذير الأذهان من الانخداع بالدعايات الخلابة في التاريخ وفي السياسة . .

ولذلك أعتقد أن هذه الآراء والأحاديث التي تحوم حول بعض الصفحات من « الماضي القريب » ، لن تخلو من بعض الفائدة . . لشبان « الحال الحاضر » ولرجال « الآتي القريب » .

أبو خلدون

صور وذكريات

فيصل الكبير

لقيته لأول مرة في دمشق ، عقب عودته من مؤتمر الصلح في باريز ، استعداداً لاستقبال لجنة الاستفتاء الامريكية. ولا أزال اذكر تفاصيل تلك الملاقاة ، بكل تفرعاتها وجميع انطباعاتها :

دخلت عليه، ليلاً ، في قاعة من قاعات قصر الجسر ، وكان جالساً على كرسي في احد أركان القاعة ، بجانب مصباح كهربائي شديد التنوير . وكان يرتدي لباساً يختلف عما كنت قد اعتدت رؤيته على « شرفاء مكة » في الاستانة : فعوضاً عن الجبة السوداء الغليظة التي تستر البدن والعمامة البيضاء المفلطحة التي تتوّج الرأس وتترك ذيلها يتدلى إلى الجانب . . فعوضاً عن ذلك اللباس الشريفي التقليدي ، كان يرتدي رداء رقيقاً أبيض وكوفية فضفاضة بيضاء . وكان بياض هذا اللباس ناصعاً ، لا يتخلله شيء غير زركشة العقال الذي يتلألأ حول الرأس ، وبريق الخنجر الذهبي الذي يبدو عند الخاصرة . وكان وجهه الطولاني الأسمر ، يظهر من بين هذه الكوفية البيضاء ، كقطعة من البرونز ، تلمع فيها عينان تفيضان بالحركة والحياة . وكانت حركات صدره تبدو بوضوح من تحت هذا الرداء الرقيق ، وتنم عن حيوية عنيفة وطموح شديد . . .

عندما سمع اسمي ، بدا على تقاطيع وجهه تحوّل فجائي وأبرقت عيناه بابتسامة عميقة ، ولم تلبث أن ظهرت دواعي هذا التحول وهذه الابتسامة ، بهذه الكلمات التي بدأها بشيء من التلعثم وأتمها بأداء متزايد الاندفاع :

ـ كلما كنت اقرأ لك واسمع عنك ، كنت اتخيلك شيخاً متقدماً في السن . ولهذا السبب سررت جداً من مشاهدتك هكذا ، في سن الكهولة وعهد النشاط . وهذا من

حسن حظ الأمة العربية : سيكون أمامك مجال واسع لتخدمها في حياتها الجديدة، كما كنت تخدم الدولة العثمانية في عاصمتها . .

ان العلاقة التي بدأت بيني وبينه تلك الليلة على هذا المنوال ،كان مقدراً لها أن تستمر وتتوطد بدون انقطاع ، مدة تزيد على أربعة عشر عاماً بقيتُ بجانبه ، وعملت في معيته حتى أواخر أيام حياته ، فاطلعت على دخائل نفسه في ظروف متنوعة ، وتبينت خصاله بكل تفصيل وبكل تأكيد .

رأيته في أشد ثورات الغضب ، وأعمق حالات الرضى ، عاشرته في أتعس أيام الخيبة وأسعد سني الفوز ؛ رافقته في أحرج ظروف حياته ، وفي أبهج أيام نجاحه : فكنت بجانبه عندما أخذ يسير ـ يوم ميسلون ـ في طريق المزة ، تحت وابل من قنابل الطيارات الفرنسية ، وبقيت بجانبه عندما كان يتردد فيما يجب عمله أولاً في الكسوة ثم في درعا ، ورافقته في الباخرة عندما انتقل من بورت سعيد إلى نابولي ، مودعاً حياة حافلة بشتى الأعمال والذكريات ، وملتمساً حياة جديدة تكتنفها أنواع الاحتمالات . كما أنني كنت بجانبه عندما أخذ يتجول في مختلف أنحاء العراق ، بعد انتخابه ملكاً عليه . وبقيت إلى جانبه طوال سني كفاحه وعمله هناك . عاشرته معاشرة مستمرة خلال جهوده المضنية في سبيل حل المشاكل الداخلية والخارجية التي كانت تتوالى بدون انقطاع على ملكه الجديد . رأيته في شتى الاحتفالات الرسمية وفي أفخم الفنادق الأوروبية ، وتحت أبسط الصرائف البدوية ، وإلى جانب أبدى الخيم الصحراوية ، فتمكنت من ملاحظته ملياً في قاعة عرشه ، ومكتب قصره ، وغرفة نومه ، وفراش مرضه ، في مختلف أيام آلامه وافراحه . . .

ونظراً إلى كل ما لاحظته في هذه الظروف المتنوعة ، خلال تلك السنين الطويلة ، علمت بأنه كان يمتاز بخصال ثمينة جداً ، تجعله وجعلته عظيماً بكل معنى الكلمة .

انه كان ذكياً ، حاد الذكاء ، ومرناً خارق المرونة . كان يتمتع بحيوية شديدة ، وفعالية لا تعرف الكلل . وكان نادر المثال في روح المثابرة وفي شيمة التعقيب . وفوق كل ذلك ، كان يحمل في طيات جنبه وطنية حارة عميقة ، تدفعه إلى العمل في سبيل الوطن بدون انقطاع ، وتجعله مستعداً لتضحية كل ما هو عزيز عليه ، عند الاقتضاء .

إن اجتماع هذه الأوصاف والمزايا في نفس الملك فيصل ، جعل حياته مثالاً رائعاً للتطور الدائم ، والتقدم المستمر ، والارتفاع السريع ، كان كل يومه أحسن من أمسه بدرجات كبيرة ، فأصبح البون بين بداية حياته السياسية ونهايتها شاسعاً جداً . وكان

من سوء حظ الأمة العربية ، أن شعلة حياته انطفأت في الوقت الذي كانت شخصيته السياسية وصلت فيه إلى أقصى درجات النضوج وأشد حالات التوهّج . . . وفي الوقت الذي اصبحت فيه الأمة أحوج ما تكون إلى خدماته . .

حقاً أنه كان ذكياً ، حاد الذكاء ؛ يتفهم ويتمثل القضايا المتنوعة بسرعة كبيرة ، وينفذ إلى دقائق الأمور وخفاياها بصورة تثير الاعجاب .

إنه كان مرناً ، خارق المرونة : يتكيف بسرعة كبيرة ، وفق مقتضيات الأحوال والظروف ، من الوجهتين المادية والمعنوية .

فإذا ما رأيته على مائدة أوروبية ، خلته رجلاً عريقاً في الحياة الاريستوقراطية الغربية ، نشأ منذ نعومة أظفاره على أدق تقاليد البلاطات الملكية . وإذا شاهدته في خيمة بدوية ، خيل اليك أنك أمام رجل لم يفارق البادية ، فلم يأخذ بادنى نصيب من متارف المدنية .

إن شخصيته البدوية ـ ومقدرته العشائرية ـ تجلت أمامي على أوضح الصور ، لأول مرة ، في ظل بيت شعر مكشوف الجوانب ، أقيم بالقرب من محطة السكة الحديدية في درعا : لقد جلس الملك فيصل القرفصاء ، بالرغم من ملابسه العسكرية ، وأخذ يحادث الشيوخ المجتمعين حوله بلهجة بدوية صرفة ، بأوضاع بدوية بحتة ، كأنه واحد منهم ، ولا يختلف عنهم أبداً : كانت كل كلمة من الكلمات التي يلفظها ترافق حركة أو إشارة من يده ، أو رأسه ، أو عينه ، أو جذعه ، أو منها جميعاً . وكانت يده ـ على وجه أخص ـ لا تنقطع عن الحركة والاشارة ، بصور شتى ، وكانت هذه الحركات والاشارات تزداد اتساعاً وارتساماً بفضل العصا الصغيرة التي كان يمسكها ، ليستعين بها على التعبير عن أفكاره خلال الحديث ، تعبيراً مجسماً . فانه كان يوجه العصا تارة إلى اليمين وطوراً إلى اليسار ، تارة إلى الأعلى وطوراً إلى الأسفل ، وكان يحركها في بعض الأحيان على الأرض ، وطوراً يرميها من يده بوضع خاص ، ثم يعود ويتناولها بوضع آخر . . . كل ذلك تمشياً مع سياق الكلام ، ومقتضيات الحديث ، والشيوخ من حوله يصغون إليه بانتباه عميق ، كأنهم مسحورون بأطواره وأحاديثه . وعندما يجيبون على اسئلته ، يبدأون الكلام بقولهم « والله يا بو غازي . . . » .

ولكني رأيته بعد شهرين من ذلك التاريخ في أحد الفنادق الايطالية الفخمة ، يبدو للناظرين كأمير أوروبي ظريف ، يجذب الأنظار بلباقته النادرة وأناقته الممتازة . وقد سمعت الكثيرين من نزلاء الفندق ـ من رجال ونساء ـ يتهامسون أو يتحادثون عنه

باعجاب عميق : « ما أظرفه !.. ما أنبله !.. ان آثار النجابة والأصالة تبدو على محياه بكل وضوح .. حقاً ، إنه أمير ممتاز!.. » إني رأيت كل ذلك رأي العين ، ولذلك لم استغرب عندما قرأت بعد مدة ـ ما كتبه عنه بوانكاره ، في مجلة العالمين الفرنسية ، بعد انفكاكه من رئاسة الجمهورية ، احتجاجاً على فكرة سفر الملك فيصل إلى انكلترة : « نحن نعرف أنه يتمتع بشخصية، جذابة ساحرة ، فعسى أن لا يؤثر في أصدقائنا الانكليز هناك ، تأثيراً يؤدي إلى تعكير صفو العلاقات القائمة بينهم وبيننا .. » .

إن خصال هذه الحياة الغربية العالية ، من ظرافة ولباقة وأناقة ، قد اشتدت وتقوت وتكاملت عند الملك فيصل على الدوام ، لكنها لم تجرده عن شخصيته البدوية في يوم من الأيام . فكانت تلك الشخصية تعود إلى الظهور كلما اقتضت ذلك الظروف والأحوال . وقد سمعته يقول مراراً ـ في سورية والعراق ـ « أنا لم أطلب العرش للراحة أو الصيت والابهة ، بل طلبته واطلبه للعمل والخدمة فإذا لم أجد مجالاً للخدمة التي أصبو إليها ، لا أتردد أبداً عن ترك العرش والعودة إلى البادية » .

*

إني لا أزال أذكر ما حدث في أول مائدة بدوية شاركته فيها . وكان ذلك في « صريفة كبيرة » ، بين أحياء العمارة في العراق . كانت المائدة بدائية وبدوية بكل معنى الكلمة : على صينية كبيرة القطر ، تل من الأرز الكثير الدهن ، وعليه خرفان سمينة . ولم يكن هناك من آلات الأكل شيء غير الملاعق المعدّة لشرب اللبن . جلس الملك فيصل على الأرض ، ببشاشته المعهودة ، وشمرً أردانه إلى كتفه ، وأخذ يتناول الطعام على عادة البدو تماماً : مد يده إلى الخروف ، وقطع اللحم بأصابعه الطويلة ، وبعد ذلك أخذ يملأ كفه بالأرز ، ثم يعصره عصراً يؤدي إلى سيلان الدهن من بين الأصابع ، وطفق يأكل بشهية وبساطة ، كأنه لم يأكل طول حياته على أسلوب غير هذا الأسلوب . أما أنا ، فقد حرت في ما يجب عمله في هذا الوضع للوهلة الأولى . ثم أخذت استعمل الملعقة مقام السكين اقطع اللحم بطرفها الحاد . واستعنت بما تذكرته عن طريقة طعام أهل الصين : وصرت أدفع بالملعقة مقداراً من الأرز على الخبز المرقق ، ثم أدفع عليه اللحمة المقطوعة . وتوصلت بهذه الصورة إلى تناول الطعام دون أن ألوّث يدي وأصابعي بالدهن أو اللحم ، على الرغم من حرماني من الشوكة والسكين .

كان الملك فيصل قريباً مني ، لا يفصل بيني وبينه الا رجل واحد . ولاحظت أنه تتبع حركاتي هذه بشيء من الاهتمام . وعندما شاهد الطريقة التي ابتكرتها ، قال لي مبتسماً :

دبرتها !؟

وانصرفت أنا إلى الأكل ، مع شيء من الارتياح ، لتغلبي على المشكلة التي جابهتني على هذا المنوال . غير أن ارتياحي هذا لم يدم طويلاً لانني شعرت ، بعد مدة قصيرة ، بقطعة كبيرة من اللحم المدهن تنقض على قفا يدي ، بكل حرارتها وسمانتها ، فتفسد عليّ كل الجهود التي كنت بذلتها . . . انه كان قطع هذه اللحمة ، ورماها فجأة على ظهر يدي المشغولة بدفع الأرز على الخبز المرقق ، وانطلق ـ في الوقت نفسه ـ يقهقه قهقهة عالية ، ويقول :

ـ عود نفسك يا شيخ !

*

« عوّد نفسك ، يا شيخ ! » هذه العبارة التي ألقاها عليّ في الظرف الذي ذكرته آنفاً ، إنه كان يعمل بها على الدوام ، ويعوّد نفسه جميع الأعمال الملائمة لجميع الظروف . . .

ولم تنحصر آثار هذه المرونة التي كانت تمكنه من التكيف مع مقتضيات الظروف والأحوال ، بالأمور المادية وحدها ، بل كانت تشمل الأمور المعنوية أيضاً : فانه كان شديد المرونة في سياسته الداخلية والخارجية ، وسريع التكيف مع ما تقتضيه الظروف المتتالية ، كما كان شديد المرونة وسريع التكيف في حياته المادية .

وهذه المرونة الشديدة ، كان يمكن أن تصبح من النقائص التي تضر بالصالح العام وتعيق التقدم والنجاح . . . لو لم تكن مشفوعة بخصلتين مهمتين : شدة الحيوية ، وحرارة الوطنية .

إن سياسة « خذ وطالب » التي وضعها لنفسه ولدولته ـ والتي أوصلت العراق إلى أوج رفعته ـ كان يمكن أن تصبح سياسة مضرة ، لو لم تحمل نفس فيصل الكبيرة طاقة لا تنضب من روح النشاط والمثابرة؛ ولو لم تؤجج في اعماق صدره سعيراً من الوطنية الخالصة . . .

إن هذه السياسة المرنة ، كان يمكن أن تؤدي إلى « الاكتفاء بما تمّ أخذه » وإلى « التقاعس عن طلب المزيد منه » . . . لو لم تحركه على الدوام . . . هذه الوطنية الطامحة التي لا تكتفي بالنزر الذي وصل إلى اليد ، بل تبقى تطالب بما وراء ذلك وتصبو إلى الأتم فالأتمّ على الدوام . . . هذه الوطنية الجامحة لا تتخدر أبداً بشعور الفوز النسبي الذي احرزته ، بل تواصل العمل في سبيل الوصول إلى الغاية القصوى

التي تصبو إليها ، وتعتبر كل خطوة من خطوات الفوز مقدمة للخطوات التالية ومقفزاً للوثوب إلى الأمام . . .

لقد رضخ فيصل الأول مراراً إلى الضرورات الخارجية تارة وإلى الضرورات الداخلية طوراً ، ولكن رضوخه هذا لم يكن في يوم من الأيام من نوع القنوط والاستسلام ، بل كان من قبيل الوقفة التي تساعد على تكثيف القوى والاستجمام ، استعداداً للكفاح الجديد ، والجهود الجديدة ، وفق خطط محكمة تمام الأحكام .

إنه ما كان يقنط من مرارة الخيبة ، ولا كان يسكر من حلاوة الفوز . وما كان ينفك عن الايمان بالفوز ، حتى في أشد ظروف الخيبة ؛ وما كان ينقطع عن النزوع إلى الفوز الأعظم ، حتى خلال أبهج ساعات النجاح .

كان مؤمناً بمستقبل الأمة العربية ، ومتحسساً نحوها بحب خالص عميق .

واستطيع أن أقول : إن حجر الزاوية في بناء شخصية فيصل الفذة ، كان هذه الوطنية العميقة . فإن جميع خصاله العقلية والخلقية ـ من ذكائه الحاد إلى حيويته الشديدة ـ ما كانت لتستطيع أن تحقق ما حققته من النهوض والتقدم بالعراق ، لو لم تكن كلها راضخة لقيادة هذه الوطنية الحارة ، ومدفوعة بقوة تلك الوطنية على الدوام . . .

وطنية الملك فيصل . . . كم وكم لي من الدلائل والشواهد على عمقها وقوتها! . . .

أنا لا أرى مجالاً لاستعراض تلك الدلائل والشواهد في هذا المقام . غير أني أرى من الضروري أن اسجل هنا واحدة منها ، لأظهر عمق تلك الوطنية وشدتها ، بكل وضوح وجلاء :

طلبني يوماً وقت العصر ، فذهبت لفوري إلى البلاط . وعندما وصلت إلى باب القصر ، علمت بأنه يتجول في الحديقة ، فتوجهت إلى جهة الشط ، لملاقاته هناك . وبعدما تقدمت قليلاً في ذلك الاتجاه ، رأيته من بعد ، متجولاً مع جماعة من حاشيته على السدة . وعندما لمحني ، خلال تلفتاته ، غيّر اتجاهه بغتة ، وأخذ يتقدم نحوي ونحو القصر ، بخطى سريعة . وعندما التقينا في منتصف طريق السدة ، صافحني ، ثم وجه إليَّ بعض الاسئلة السريعة : « كيف حالك ؟ كيف خلدون ؟ امه ؟ أخته ؟ » وبعد ذلك واصل السير نحو القصر بخطى واسعة وسريعة ، دون أن يقول شيئاً . . . .

وظهر لي بوضوح عندئذ أنه كان مشغول البال بقضية مهمة ، يريد أن يحدثني

عنها ، ولكنه لم يشأ أن يذكر شيئاً منها بحضور أحد من رجال حاشيته . ولذلك بقي صامتاً إلى أن وصلنا القصر ، ودخلنا القاعة الكبيرة ، واختلينا فيها .

جلس على كرسي في أقصى زاوية القاعة ، وأشار إليّ بالجلوس إلى الكرسي الذي بجانبه ، ثم خفض بصره نحو منضدة السجائر التي تقع بيننا ، ووقف في هذا الوضع مدة من الزمن ، وقفة من يريد أن يجمع شتات أفكاره ، وينظم عناصر حديثه . . . ثم رفع رأسه بغتة ، وهزه هزاً خفيفاً ، بوضع من اتخذ قراراً خطيراً ، وأخذ يتكلم : بدأ الحديث بلفظ كلمة « غازي » ، ثم كرّر هذه الكلمة ـ حسب عادته عندما يتكلم عن شيء خطير ـ « أقول : غازي » . ولم يكد يلفظ العبارات الأولى من حديثه ، حتى تبينت كل المسألة ، بكل ما فيها من خطورة وتعقيد :

غازي ، ابنه وولي عهده ، غازي . . . إنه كان قد تركه هناك في الحجاز منذ بداية الثورة ، تحت رعاية جده الملك حسين . ولكنه بعد أن استقرت الأمور في العراق ـ رأى من الضروري أن يجلبه إلى بغداد ، ليشرف على تربيته وتعليمه بنفسه ، وينشئه التنشئة التي يتطلبها مستقبله . ويظهر أن البعض ممن كانوا ساهموا في تعليم الملك فيصل نفسه ، أرادوا أن يتولوا تعليم غازي ، ولكنهم لاحظوا بأنه لا يفهم ما يُلقى عليه من الدروس . وما نقلوه إلى الملك فيصل في هذا الصدد ولّد في نفسه خوفاً من أن يكون في ذكاء غازي شيء من النقص ، وحمله على التفكير في الأمر بصورة جدية .

« تعرف يا ساطع ، بأني أحب أسرتي ، وأحب ابني غازي ، وأحب أن أؤسس أسرة مالكة . . . ولكني أحب أمتي أكثر من أسرتي وأكثر من غازي . . . فإذا كان الأمر حقيقة كذلك ، وإذا كان غازي لا يتصف بالذكاء اللازم لولي عهد وللملك ، أقول : إذا كان غازي لا يخلو من غباوة ، فأنا سوف لا اتردد في العمل بما يحتمه عليّ الواجب الوطني . سأجمع مجلس الأمة ، وسأقول : إني اجعل الأمة في حل من ولاية عهد ابني ، وأترك لها الحرية التامة في تقرير ما يجب عمله في هذا الشأن . . . » .

قال ذلك ، بصوت مختنق ، ولكنه مملوء بأداء العزم والحزم . ثم كرّر : « أحب ابني ، ولكني أحب امتي أكثر من ابني . . فعليّ أن أقوم بواجبي نحوها ، قبلَ كل شيء . . . » .

ولقد أصغيت إلى حديثه هذا ، بسكون تام وبتأثر عميق .

أذكر أنني كثيراً ما جوبهت باستشارات من بعض الآباء والأمهات عن بعض المشاكل والمسائل المتعلقة بأولادهم خلال حياتي التربوية الطويلة . غير أني لا أذكر أن واحدة منها بلغت من الخطورة مبلغ خطورة هذه الاستشارة . .

إنني لم أكن قد رأيت الأمير غازي ـ حتى ذلك اليوم ـ إلا مرة واحدة . فقلت للملك فيصل : مع الأسف انني لم أخالطه إلى الآن مخالطة تمكنني من الحكم في الأمر حكماً قاطعاً . ومع هذا استطيع أن أقول : إنني لم ألاحظ على سحنته وشكل جمجمته ، ما يدل على نقص عقليّ فيه .

وبعد هذه المقدمة ، سردتُ عليه بعض المعلومات العامة : إن علماء النفس والتربية يقسمون « التأخر » الذي يلاحظ عند الأطفال إلى نوعين أساسيين : النوع الأول هو التأخر الذي ينتج عن التأخر في الدرس والتعلم . والنوع الثاني ، هو التأخر الذي ينجم عن نقص طبيعي في القابليات الفكرية . إن النوع الأول مما يمكن تلافيه تلافياً تاماً ، بتدابير تربوية وتعليمية خاصة ، بعكس النوع الثاني الذي لا تمكن معالجته معالجة تامة . يلوح لي أن حالة الأمير غازي ، تنطبق على النوع الأول : إنه تأخر في الدرس ـ المدرسي منه والطبيعي ـ بالنسبة إلى عمره . ونتج عن ذلك نقص في قواه الفكرية الراهنة . وهذا مما يمكن تلافيه بسهولة . ومع ذلك ، أنا أقول هذا ، دون أن أؤكده . فاسمحوا لي أن أواجهه ، وأفحصه عدة مرات ، قبل أن أعطي حكماً قاطعاً في الأمر . .

إن ايضاحاتي هذه بسطت على قلبه شيئاً من الطمأنينة وأزالت عن وجهه علائم التوتر والانقباض . ومع هذا ، بعد الاصغاء إلى ما قلته اصغاء المرتاح المتفائل ، عاد إلى تخوّفه فقال : « ولكنني أريد أن أتأكد من الأمر . أدرُس المسألة جيداً ، وقل لي رأيك النهائي . لا تفكر بي ، لا تفكر بغازي . فكّر بالأمة ، فكر بالوطن . . . » .

قال ذلك وانتصب في كرسيه ، وانتهزت أنا فرصة هذا الانتصاب ، للنهوض والانصراف . وعندما قام يصافحني مودعاً ، قال لي بلهجة ملحة ، كلها جد وحزم :

« أعرف ، يا ساطع ، انك رجل صريح تقول كل ما تعتقد به بدون مواربة . . . غير أني أرجوك أن لا تخرج عن ديدنك هذا في هذه المسألة : لا تفكر بي ، لا تفكر بغازي ، فكر بالأمة ، فكر بالوطن . . . » .

ودّعته بعد أن طمأنته على ذلك . وقبل أن أخرج من الباب ، سمعته يكرر مرة أخرى : « قلت لك يا ساطع ، لا تفكر بي ، لا تفكر بغازي ، فكر بالأمة ، فكر بالوطن . . . » .

*

ليس هنا مجال للبحث عما تم بعد ذلك . غير أني أرى من الواجب عليّ أن أصرح بأنني عدت إليه بعد عدة أيام اطمئنه على صدق تخميني الأول ، وأؤكد له أن عدم فهم غازي لما القي عليه من دروس ، لم يتأتّ من نقص في قابلياته الفكرية ، بل

نتج عن تأخره في الدرس والمخالطة تأخراً شـاذاً ، بحكم حياتـه السابقـة ، وأن تلافي ذلك يتطلب السير على خطة محكمة ، بوسائط خاصة ، بواسطة معلمين ومربين مجدين ويقظين . .

إني لا أزال أذكر الفرح الـذي تملكه عنـدما سمـع مني هذا الحكم ، والحمـاس الذي أظهره في تطبيق الخطة التي اقترحتها لتعليم غازي وتربيته . .

غـير أني لا أزال أذكر ـ في الـوقت نفسه ـ رنـين صوتـه الـذي كـان يكـرر عـلى مسامعي : « لا تفكر بي ، لا تفكر بغازي ، فكر بالأمة ، فكر بالوطن . . . » .

وشاءت الظروف أن أتولى ادارة الآثار القديمة ، بعد ارتحال فيصـل الكبير ، وأن أتوصل إلى إظهار واحياء بقايا القصر العباسي في قلعة بغداد ، من بـين المباني المضـافة إليه والأقذار والأنقاض المتراكمة فيه ، واعادة بعض قاعاتها إلى مـا كانت عليـه قبلاً . وفكرت عندئذ ، بتخصيص قاعات ذلك القصر القديم ، لعـرض مخلفات هـذا الملك العظيم .

وعندما كنت أفكر هناك في كيفية توزيع وعرض الأشياء والصور ، عـلى جدران هذه القاعات وخزاناتها عرضاً يمثل حياتـه ومآثـره أحسن تمثيل ، كم وكم مـرة قلت في نفسي :

ولكن كم وكم له من المآثـر التي لا يمكن أن تظهـر على الصـور ، ولا أن تتمثل بأشياء ! . .

لو لم يُخرج الفرنسيون الملك فيصل من سورية . . .

« لو لم يخرج الفرنسيون الملك فيصل من سورية . . » هذه عبارة ارتسمت بطبيعة الحال في أذهان الكثيرين ، منذ وقائع سنة العشرين ، وحملتهم على التساؤل : « ماذا كان يحدث عندئذ في سورية بوجه خاص ، وفي سائر البلاد العربية بوجه عام ؟ » .

إن ما حدث في العراق من التقدم السريع في جميع ميادين الحياة العامة ـ بفضل جهود الملك فيصل ـ يحمل الكثيرين على الرد على هذا السؤال بجواب مقرون بالتأسف الشديد والتلهف العميق . . لأنهم يذهبون إلى أن سورية كانت تنال على يده تقدماً كبيراً يفوق التقدم الذي ناله العراق ، كما أن التقدم الذي يحدث في سورية على يده بهذه الصورة ، كان من شأنه أن يؤثر في أوضاع سائر البلاد العربية تأثيراً أعمق وأشمل من التأثير الذي أحدثه في العراق . .

وأما أنا ، فأرى غير هذا الرأي ، لأن ما أعلمه عن سجايا الملك فيصل ونزعاته الأصيلة من ناحية ، وعن عقلية الانكليز والفرنسيين وسياستهم من ناحية ثانية ، وعن أوضاع العراق وسورية في تلك الحقبة من التاريخ ، ونزعات أهليهما من ناحية ثالثة . . يحملني على القول بأن الملك فيصل ، لو بقي في سورية بعد وقائع ميسلون لما استطاع أن يقوم بخدمات تماثل الخدمات التي قام بها في العراق .

أولاً : لأن عقلية الانكليز المنتدبين على العراق تختلف عن عقلية الفرنسيين المنتدبين على سورية اختلافاً كلياً ، كما أن السياسة التي يسير عليها الانكليز في حكم الشعوب بوجه عام تختلف عن السياسة التي يتبعها الفرنسيون في هذا المضمار اختلافاً جوهرياً .

فإن الانكليز قوم عمليون . انهم يستطيعون أن يعينوا منافعهم بصورة واضحة ويحددوا مطالب بحدود قاطعة . كما أنهم يسعون إلى معالجة هذه المنافع والمطاليب بصورة مجردة عن الهوى والعاطفة . إن تجاربهم السابقة في حكم الشعوب والسيطرة على البلاد ، لا سيما في شمال أمريكا وجنوب أفريقيا ، علمتهم بوضوح وجلاء مضار التشدد والتصلب من جهة ، وفوائد التساهل والتفاهم من جهة أخرى ، فاكسبتهم بذلك مرونة سياسية كبيرة في تنظيم علاقاتهم بالبلاد التي تقع ضمن نطاق مصالحهم الخاصة .

إنهم قد يخطئون في موازنة المنافع والمغانم التي تنجم عن كل خطة من الخطط التي يضعونها ، ولكنهم لا ينفكون عن إعادة النظر في هذه الموازنة من حين إلى حين . كما أنهم ـ إذا أفهموا غلطهم ـ لا يترددون في تغيير خطتهم ، دون أن يتركوا لعواطفهم مجال التأثير في الخطط التي يتبعونها .

ولهذه الأسباب كلها ، فإن سياسة التساوم المستمر والتفاهم التدريجي التي تتمثل بدستور « خذ وطالب » الذي وضعه فيصل العظيم كان يمكن أن تنجح مع الانكليز ، وأن تأتي بثمرات بالغة في البلاد التي تقع تحت نفوذهم .

غير أن الفرنسيين ـ بعكس ذلك تماماً ـ قوم خياليون واندفاعيون . إنهم لا يستطيعون أن يحددوا منافعهم ومطالبهم بحدود واضحة ، ولا أن يجردوا سياستهم من تأثير الهوى والعاطفة . . .

والتجارب التي مرت عليهم في حكم الشعوب والبلاد ، لم تكسبهم شيئاً من المرونة في هذا المضمار ، لأنهم لم يخسروا احدى مستعمراتهم من جراء ثورة أهاليها ـ كما حدث للانكليز في أمريكا الشمالية بعد الحرب الاستقلالية ـ ولم يضطروا إلى تجربة سياسة التفاهم بصورة فعلية ـ كما حدث للانكليز في افريقيا الجنوبية ، بعد الحروب البويرية ـ ولذلك ظلت سياستهم تستلهم خططها من تجاربهم الجزائرية والمراكشية ، وظلوا لا يعرفون معنى للحكم غير « الحكم المباشر » ولا يتصورون لوناً من السيطرة غير « السيطرة المطلقة » .

والنجاح الذي احرزه الفرنسيون في ادارة القطر الجزائري ادارة مباشرة ـ بعد اخماد الثورة التي جابهتهم في بادىء الأمر ـ شجعهم على المضي في هذه السياسة التقليدية ، وجعلهم يتمادون في اعتبار سياسة التساهل والتفاهم منافية للشرف العسكري وماسة بالكرامة القومية .

إن هذه الأوصاف التي تتصف بها السياسة الفرنسية في حكم الشعوب والبلدان

بوجه عام كان من الطبيعي أن تتجلى في سياستهم السورية أيضاً ، بشدة أعظم وبصورة أتم من كل ذلك ، لأن الآمال والأماني التي علقوها على سورية ، كانت قديمة ومعقدة وواسعة جداً ، كما أنها كانت ممزوجة بالشيء الكثير من الصوفية أيضاً ، إذ من المعلوم أن أصول هذه الأماني والآمال كانت ترجع إلى عهد الحروب الصليبية ودور الامارات اللاتينية ، واما دفة سياسة فرنسة في سورية ، فكان يشترك في توجيهها مطالبات الغرف التجارية الفرنسية وتنظيمات المحافل اليسوعية . وكل ذلك كان يبعدها عن مناحي التساهل والتفاهم بعداً كبيراً . . .

ولذلك كله أقول : إن الملك فيصل لو بقي في سورية بعد دخول الفرنسيين ، لما سارت الأمور كما سارت في العراق بوجه من الوجوه ، بل لحدث أحد الأمرين التاليين ، على وجه التأكيد :

إما أن يخضع الملك فيصل إلى مشيئة الفرنسيين خضوعاً تاماً ، فيفقد مكانته الشعبية وينزل إلى منزلة راجوات الهند أو سلاطين المغرب . . .

أو يختلف مع رجالهم اختلافاً كبيراً يحملهم في آخر الأمر على إخراجه من البلاد ، بعد مرور مدة من الزمن .

إن ما أعلمه عن شدة الشعور القومي الذي كان يختلج في جوانح الملك فيصل يحملني على استبعاد الاحتمال الأول ، وعلى القول بحتمية الاحتمال الثاني ويجعلني أجزم ـ على كل حال ـ بأن الملك فيصل ما كان ليستطيع أن يخدم سورية خدمة ذات بال ، لو بقي فيها بعد دخول الفرنسيين .

*

زد على ذلك أمراً آخر ، جديراً بالاعتبار في هذا المضمار :

إن المرحلة التاريخية التي كانت سورية قد اجتازتها حتى يوم ميسلون ، تختلف اختلافاً جوهرياً عن المرحلة التاريخية التي كان العراق قد اجتازها حتى ذلك اليوم ، كما أن الحالة النفسية التي كانت سائدة في سورية عند خروج الملك فيصل منها تختلف اختلافاً كلياً عن الحالة النفسية التي كانت سائدة في العراق ، عند وصول الملك فيصل إليه .

فإن العراق خرج من الحكم العثماني ، من جراء الحروب التي حملت اعباءها الجيوش البريطانية والهندية وحدها ، والادارة التي تأسست في مختلف أنحاء العراق ـ عقب الحرب العالمية ـ كانت ادارة احتلالية أجنبية بحتة ، لا أثر للحكم الوطني فيها .

والعراق كان قد أصبح لذلك تابعاً لبريطانيا ـ وبتعبير أصح : تابعاً لحكومة الهند التابعة لبريطانيا ـ تابعيةً صريحةً ، بصورة فعلية . فكل ما كان يُعمل هناك بعد ذلك لنقل أعمال الادارة ومسؤولية شؤون البلاد من الأيدي الاحتلالية إلى الأيدي الوطنية ـ ولو بصورة تدريجية ـ كان خليقاً بالاعتبار « خطوة إلى الأمام » في سبيل الاستقلال المنشود . وكان ينزل منزلة « نيل حق فعلي » بالنسبة إلى الأحوال الراهنة .

ولهذا السبب ، فإن سياسة « خذ وطالب » التي سار عليها الملك فيصل في العراق ، كانت سياسة حكيمة بالنسبة إلى الأحوال القائمة فيه عند ذاك . فقد سار العراق ـ بفضل هذه السياسة ـ نحو الاستقلال الفعلي التام ، شيئاً فشيئاً ، إلى أن دخل في حظيرة عصبة الأمم . . .

وأما في سورية ، فإن الأمور كانت قد سارت على عكس ذلك تماماً . فإن البلاد السورية تخلصت من الحكم العثماني على يد جيش الثورة العربية ـ ولو بمساعدة الجيش البريطاني ـ فالادارة التي تأسست هناك كانت ادارة وطنية بحتة منذ البداية . وهذه الادارة تحولت بسرعة إلى حكومة وطنية منظمة ، تعمل تحت مراقبة مؤتمر يمثل الأمة . والبلاد أعلنت استقلالها بصورة رسمية ومارست هذا الاستقلال بصورة فعلية . فكل معاهدة يمكن عقدها مع فرنسة بعد ذلك كان لا بد من أن تأخذ شكل « تنازل عن بعض الحقوق المكتسبة » ، ولا بد من أن تصبح بمثابة « رجوع إلى الوراء » بالنسبة إلى الحالة الراهنة .

فما كان من الممكن أن يقال في سورية ـ والحالة هذه ـ « خذ وطالب » ، كما قيل في العراق ، لأن سورية كانت قفزت إلى ذروة الاستقلال منذ الحملة الأولى . وكانت أصبحت أمام مطالب الفرنسيين لا عروضهم . . .

فنستطيع أن نقول بكل تأكيد : إن كل معاهدة من المعاهدات التي اعتبرت في العراق من نوع « التقدم إلى الامام في سبيل الاستقلال » كانت تعتبر في سورية ـ في ذلك التاريخ ـ بمثابة « الانحدار نحو الاستسلام والعبودية » .

فما كان يمكن للملك فيصل أن يقوم في سورية بخدمة مماثلة للخدمات العظيمة التي قام بها في العراق ، ومن هذه الوجهة أيضاً .

لهذه الملاحظات كلها أقول : إن اخراج الملك فيصل من سورية غداة يوم ميسلون ، كان من الأمور التي نفعته ونفعت الأمة العربية منفعة كبيرة .

وأرى أنه يجب أن يُحمد الجنرال غورو على فعلته هذه ، لأنني اعتقد أنه خدم بها

القضيـة العربيـة ـ من حيث لا يقصد ولا يـدري ـ إذ أفسح امـام الملك فيصـل مجـالاً للعمل في بيئة ـ وتحت ظروف ـ أكثر مساعدة للعمل المثمر . فـاكسب العراق مؤسساً داهية ، واكسب الأمة العربية بطلاً مغواراً ، مثل فيصل العظيم[1] . .

---

(١) وقعت في المجلد العاشر من « الموسوعـة الفرنسـيـة » الجديـدة على فقـرة تتعلق بالملك فيصـل ، كتبها « لويس لوفور » Louis Le Fur الأستاذ بكلية الحقوق في باريس .

وقد تولى الأستاذ المشار إليه كتابة فصل « الدولة والأمة » في الموسوعة المذكورة ؛ وعنـد الكلام عن « تـأثير الدولة في توحيد وتكوين الأمة » ذكر العراق والملك فيصل قائـلاً : « إن عملية تـوحيد الأمـة بواسـطة الدولـة ، تجري أمام أعيننا في هذه البوتقة التي تسمى « العراق » : ملك ذو حزم وذكـاء ، استطاع أن يحقق ذلـك ـ بعض التحقيق ـ خـلال بضـع سنـوات . وهـذه الـواقعـة من الأمثلة التي يتجـلى بهـا إلى العيــان ، كيف أن « مجـرى الحوادث » قد يتغـير من جراء « تصـادف » يتعلق بطول أو قصـر عهد ملك من الملوك : فلو طـال العهد بـالملك فيصل ، لكان من الممكن أن يستفيد من « فترة تعب أو ضعف » قد تعتري فرنسة أو بريطانيا ، فينجح في خلق دولة عربيـة كبيرة ، تضم العـراق ، وفلسطين وسـورية ولبنـان أنظر : *Encyclopédie française*, tome 10 .

لقد كتب لوفور هذه الكلمة سنة ١٩٣٥ ، خلال هذا البحث العلمي البحت .

وعندما قرأت هذه الكلمة في هذه الموسوعة الكبيرة ، تذكرت حالاً ـ عن طريق التضاد ـ ما كـان قد كتبه رئيس جمهورية فرنسة السابق « بوانكارة » ، قبل ذلك بخمسة عشر عاماً : في مقالة نشرها في « مجلة العالمين » ، عقب يوم ميسلون ، قاصداً الملك فيصل : « بالون منفوخ ، انفش وزال » !

مع أن بوانكـارة كان من أكبـر رجال السيـاسة في فـرنسة ، وكـان ممن يمتازون بسعـة الثقافـة ، ورجاحـة العقل ، وقوة البيان ! . .

حول انهيار فرنسة

- ١ -

إن أهم الحوادث التي حدثت منذ نشوب الحرب الحالية ، هي بلا شك « انهيار فرنسة »[٢] . .

في الواقع ، أن عدة دول أخرى سبقت فرنسة ، في وادي الانهيار خلال هذه المدة ، غير أن بعضها كان من الدول الحديثة ، وبعضها كان من الدول الصغيرة ، فاندحارها لم يؤثر في سير الحرب تأثيراً عميقاً . . .

أما فرنسة فقد كانت « العماد البري » للقوى المخالفة لالمانيا ، وجيشها يعتبر أبسل جيش على الأرض ، فكان من الطبيعي أن يؤثر اندحارها تأثيراً كبيراً في مجرى الحرب ، وأن يولد انعكاسات شديدة في الرأي العام ، في جميع أنحاء العالم . .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، فإن الدول التي اندحرت وانهارت خلال هذه الحرب ، قبل فرنسة ، لم تكن ذات علاقات هامة بالبلاد العربية ، في حين أن فرنسة كانت ، منذ مدة طويلة ، أشد الدول علاقة بالعالم العربي من الوجهتين السياسية والثقافية . فكان من الطبيعي أن تكتسب انعكاسات هذا الانهيار - في الرأي العام العربي - شدة خاصة ، تتناسب مع شدة هذه العلاقات الثقافية والسياسية . .

ولذلك ، رأينا أن عدداً غير قليل من الكتاب العرب انبروا إلى نشر المقالات ونظم الأشعار ، حول هذا الانهيار . .

---

(٢) محاضرة القيت في نادي المثنى ببغداد ، سنة ١٩٤١ .

إن معظم الكتابات التي نشرت في هذا المضمار كانت « عاطفية » بكل معنى الكلمة ، كان أكثرها بمثابة مراثٍ ، تندب حظ فرنسة ، وتظهر أسفاً شديداً ، وحزناً عميقاً للكارثة التي حلت بها . ليس هذا فقط ، بل أن بعض أصحاب هذه الكتابات كان يغالي في الرثاء ، حتى لقد انتهى إلى درجة البكاء . . .

غير أن هذه المراثي قوبلت حالاً بمعارضة شديدة ، فقد حمل عليها بعض الكتاب فوراً ، حملات عنيفة ـ كيف يجوز لكاتب عربي أن يبكي على فرنسة متناسياً ما فعلته هي بالقسم الأعظم من البلاد العربية ؟ . . . كيف يجوز لمفكر عربي ، أن يأسف لما حل بفرنسة ، وهو يعلم أنها كانت من أهم العوامل التي أنزلت أكبر النكبات بالأمة العربية ، ولا سيما بعد الحرب العالمية ؟

وهنا احتدم الجدال بين الفريقين ، وحاول كل فريق أن يعبر عن عواطفه بمقالات حارة ، أودع فيها كل ما أوتي من قوة البلاغة والبيان . .

إنني من الذين يعتقدون بأن الكتابات العاطفية ، تعبر عن نفسية كتابها الشخصية ، وخوالجهم الذاتية ، فلا تتحمل المناقشة مناقشة علمية . .

غير أن أصحاب المراثي لم يكتفوا بإظهار عواطفهم هذه وتثبيتها ، بل أخذوا يدافعون عنها ويدعون إليها ، وحاولوا أن يدعموها ببعض الآراء والنظريات السياسية والاجتماعية . .

فإذا جاز لنا أن نسكت تجاه « العواطف الشخصية » فلا يجوز لنا أن نلتزم هذا السكوت تجاه الآراء والنظريات التي صارت تنشر لتبرير تلك العواطف . .

لقد قال بعضهم « يجب علينا أن نميز بين فرنسة الأدبية المتمدنة وفرنسة السياسية المستعمرة » . .

وقال آخرون « يجب علينا أن نفرق بين عمل الساسة وعمل الأمة كلها ، فلا يجوز لنا أن نعتبر الشعب الفرنسي مسؤولاً عن أعمال حكامه » . .

فلننعم النظر في الآراء التي تتضمنها مثل هذه الأقوال ، ولنفكر جيداً : هل يمكن التمييز بين فرنسة الأدبية المتمدنة وفرنسة السياسية المستعمرة تمييزاً حقيقياً ؟ .

إنني لا أعتقد بذلك أبداً . . لأن الأدب الفرنسي نفسه لم يلتزم الحياد تجاه السياسة الفرنسية بوجه عام ، وحيال السياسة الاستعمارية بوجه خاص .

بل بعكس ذلك ، انبرى لخدمة تلك السياسة ، بكل الوسائل الممكنة . وقد كتب الأدباء عدداً لا يحصى من المقالات والخطب والأشعار ، والقصص والروايات ،

التي تمجّد الاستعمار ، وتزينه إلى النفوس ، وتحثّ على الاستعمار وتحببه إلى القلوب . .

إن دلائل ذلك تظهر للعيان من خلال جلسات الاكاديمية الفرنسية أيضاً ، لأن هذه الندوة الأدبية العليا قد حرصت كل الحرص على أن تختار بعض أعضائها من بين رجال السياسة والجيش ، كما اختارتهم أحياناً من صناديد الاستعمار ، وهؤلاء لم يتجردوا من نزعاتهم السياسية والاستعمارية ، عند دخولهم قاعة اجتماع تلك الندوة حتى أنهم لم يترددوا أحياناً في اتخاذ تلك القاعة منبراً لإسماع آرائهم الاستعمارية في خطب أدبية رائعة . . .

ولعل أقرب وأوضح الأدلة على ذلك ، كان انتخاب الماريشال (ليوتي) لعضوية الاكاديمية المذكورة . ومن المعلوم أن هذا الرجل يعتبر من أكبر رجال الاستعمار ، فقد لقبه الفرنسيون بلقب « الافريقي » ـ تقليداً لما كان قد فعله الرومان في القرون الأولى عندما خلعوا مثل هذا اللقب على « اسجيبيون » بعد تمكنه من تدمير قرطاجنة . . .

أجل أن الاكاديمية الفرنسية انتخبت الماريشال « ليوتي » لعضويتها ، أفتدرون ماذا كان موضوع « خطبة القبول » التي دشنت حياته الاكاديمية ـ وفقاً لتقاليد الندوة الأدبية المذكورة ؟ إن موضوع الخطبة كان « الاستعمار » . . . اقرأوا الخطبة المذكورة تجدوا أنها قطعة أدبية رائعة ، في مدح الاستعمار وتمجيده . . إنها تشرح فوائد الاستعمار المادية والمعنوية ، بأسلوب حار بليغ ، وتدعو إلى « الايمان » بضرورته لحياة فرنسة .

ولكن كيف ذلك ؟ لأن الاستعمار مصدر هام للقوة والثروة ، ومنبع لا ينضب للجيش ، وساحة تدريب وتكوين للقواد . . ولأن الأمم المحرومة من المستعمرات ، إنما يُكتب عليها الركود والجمود الروحي . . .

أعتقد أن هذه الخطبة ، من أبرز الأمثلة والأدلة على تداخل الأدب والاستعمار وتشابكهما ، فلا يجوز لنا أن نقول ـ والحالة هذه ـ بوجوب التمييز بين « فرنسة الأدبية المتمدنة وفرنسة السياسية الاستعمارية » ، بوجه من الوجوه .

وأما إذا قيل لي : إن القصد من التمييز المبحوث عنه ، هو « تقدير الأدب الفرنسي » في حد ذاته ، « بقطع النظر عن السياسة الفرنسية والاستعمار الفرنسي » . . . إذا قيل لي ذلك ، فأنا أسلم بصحة هذا الرأي ، غير أني أقول بلا تردد : إذا كان الأمر كذلك فلا يبقى داع أو مبرر للرثاء ، لأن الأدب الفرنسي ظل خارجاً عن حدود النكبات . . فإن النكبة التي نحن بصددها إنما حلت بالدولة

الفرنسية وبـالجيش الفرنسي ، لا بـالأدب الفرنسي . . لأن انهيـار الجيش لا يستوجب انهيار الأدب ، والانـدحـار في ميادين الحـرب والسياسـة لا يستلزم الاندحـار في ميادين الأدب والثقافة . . .

إنني أستـطيع أن أخـطو خطوة أخـرى في هذا السبيـل فـأقـول : إن مثـل هـذه النكبات قد لا تخلو من فائدة للأدب ، لأنها قد تكوّن منبتاً خصباً للانتاج الأدبي ، فإن الآلام والأتـراح تكون ـ بـوجه عـام ـ أفعل من الأفـراح في اثارة العـواطف ، وتـوليـد الأدب الرائع . . .

وعلى كل حال ، أن نظريـة التمييز بـين فرنسـة الأدبية وفـرنسة الاستعمـارية لا تستند على أساس قويم ، من هذه الوجهة أيضاً .

وأما القول بوجوب التفريق بين الشعب والحكام ، وعدم اعتبار الشعب مسؤولاً عن أعمال الحكام . . فقول غريب جـداً ، ولا سيما بـالنِّسبة إلى فـرنسة ، التي تفخـر وتباهي بالديمقراطية والجمهورية ، والادارة الشعبية . . .

أنـا لا أنكر أن الحكـام قد يستـطيعون في بعض الأحـوال أن يجـروا شعبهم إلى الاتجاه الذي يريدونه ، غير أنني اعتقد بأن ذلك الاتجاه لا يمكن أن يستمر طويلاً ، إذا لم يأت موافقاً لنزعات الشعب ، وإذا لم يجد هوىً في أمياله النفسيّة . .

ومن المعلوم أن « الاستعمار » لم يكن من الحادثات العارضة في تاريخ فرنسة . . بل أن تاريخ الاستعمار هنالك طويل جـداً . حتى أن بدء الاستعمـار الفرنسي للبلاد العربية نفسهـا يعود إلى أكـثر من قرن . فـإن فرنسـة بدأت حملتهـا على الجـزائر سنـة ١٨٣٠ ، وقد مضى على ذلك التاريخ قرن كامل مع عقد من السنين . . ولقد غيـرت فرنسة « نظام حكمها » ـ خلال هذه المـدة ـ أربع مـرات ، بل خمس مـرات . انتقلت من الملكية إلى الجمهورية فالامبراطوريـة ، ثم عادت إلى الجمهـورية ، والآن أخـذت تجـرب شكلاً جـديداً من نـظام الحكم . . ومع هـذا ، فـإنها لم تنحـرف عن سلوكهـا الاستعماري طوال هـذه المدة ، وخـلال هذه النـظم المختلفة . لقـد أتمت استعمارهـا للجزائر بين شتى الانقلابات السياسية ، واستولت عـلى تونس سنـة ١٨٨٢ ، وبسطت حمايتها على مراكش سنـة ١٩١١ ، واستولت عـلى سوريـة وأتمت استعمارهـا للمغرب الأقصى بعد الحرب العالمية . . وقد توالت خلال هذه المدة الطويلة عدة أجيال ، ونشأ وتـرعرع في غضـونها عشرات الأحـزاب ، وتـولى الأمـر فيهـا عشـرات وعشـرات من الحكومات المتضاربة النزعات . . . ومع كل هـذا ، لقد ظـل « العمل الاستعمـاري » هـو هـو ، دون أن يتـوقف أو يتغـير من جـراء تبـدل نـظم الحكم ، أو تعـاقب الحكـومـات . . وتـوالي الأجيـال . . فـلا يجـوز لنـا إذن أن نسلم بـأن « الاستعمـار

الفرنسي » من أعمال حكام فرنسة ، وبأنّ الشعب الفرنسي يجب أن لا يُعتبر مسؤولاً عنه . . .

- ٢ -

هذا ، ومما يسترعي النظر أن معظم ما كُتب في رثاء فرنسة وفي الدفاع عن ذلك الرثاء - في اللغة العربية - يُظهر آثار افتتان غريب بها - ومغالاة شديدة في اعتبارها أرقى شعوب الأرض ، على الاطلاق . . .

فقد قال أحد الكتاب : « إن المساواة في العدل الاجتماعي لم تكد تتحقق في أمة من الأمم في كل ادوار التاريخ إلّا في فرنسة » . . . كما ادعى كاتب آخر أنه « لم يثر ثائر على الاستعمار ، في مشرق أو مغرب إلّا وفي روحه جذوة من النار التي أوقدتها باريس للغضب على استعباد الشعوب » .

وقال أحدهم : « لا أعرف فرداً قد ربي فيه الوازع الشخصي بمثل ما ربي في الرجل الفرنسي » .

وقد صاح كاتب قائلاً : « إن قوة الالمان فيض من قوتك يا باريس ! » كما خلع كاتب آخر على فرنسة سلسلة نعوت خارقة مثل « مبعث النور والحرية ومهد الاختراعات » .

إن معظم هذه الدعاوى تخالف الحقائق الراهنة مخالفة صريحة ، كما أن ما تبقى منها ينطوي على مغالاة صارخة . .

فإن التاريخ يذكر لنا عشرات الثورات التي قامت قبل ثورة باريس المعلومة . . والفرنسيون أنفسهم يعترفون بأنهم تأخروا كثيراً في تحقيق المساواة في العدل الاجتماعي ، كما أن معظم مفكريهم يشكون بمرارة ضعف الوازع الشخصي في نفوس مواطنيهم ، ويحسدون بصراحة بعض الأمم من جراء الوازع الشخصي المبحوث عنه . . .

وأما نعت فرنسة بـ « مبعث النور ومهد الاختراعات » واعتبار الفرنسيين أرقى شعوب الأرض على الاطلاق . . فدعوى إن كان يمكن الدفاع عنها في دور من ادوار التاريخ ، فقد أصبحت من القضايا التي لا يمكن التسليم بها في الدور الذي نعيش فيه الآن . . .

لقد كان الفيلسوف الانكليزي الشهير « هربرت سبنسر » قد فنّد الأسطورة القائلة « بتفوق الفرنسيين » على جميع شعوب الأرض في « المدخل » الذي كتبه لعلم الاجتماع قبل نحو سبعة عقود من السنين ، وانتقد انتقاداً لاذعاً ، المبالغات المفرطة

التي كانت تلقب فرنسة بلقب « محررة الأمم » والتي كانت تدعي بأن اندراس باريس يعني انطفاء مشعل المدنية .

أنا لا أشك في أن مثل هذه المبالغات التي استثارت انتقادات الفيلسوف المشار إليه عندئذ ، قد أصبحت أشد بعداً عن الحقيقة الآن ، وأجدر بالانتقاد الشديد في هذا الزمان . . ولست أنكر أن فرنسة كانت أرقى بلاد العالم في دوْر من ادوار التاريخ ، هذا الدور هو العهد الذي يمتد بين أواسط القرن السابع عشر وأواخر الثامن عشر . وأعرف أن البعض من المفكرين الذين استعرضوا تاريخ أوروبة استعراضاً فلسفياً ولاحظوا تتابع دور الاقطاع ودور الانبعاث ، قد سموا الدور الذي نحن بصدده باسم « الدور الفرنسي » . . غير أنني أعرف أيضاً أن ذلك الدور قد مضى ، وانطمس في اغوار التاريخ ، منذ مدة طويلة لأن حالة أوروبا وحالة العالم تبدلت تبدلاً هائلاً خلال القرن التاسع عشر ، فلم تستطع فرنسة أن تحتفظ بمنزلتها السابقة بين هذه التبدلات والتقلبات العالمية الهائلة .

أنا لا أود أن أقول ان فرنسة تأخرت منذ ذلك الحين ، إنما أود أن أقول : إن أمماً ودولاً أخرى قامت ، ونهضت وتقدمت بسرعة هائلة . . منذ ذلك العهد ، انها أخذت تتسابق مع فرنسة تسابقاً عنيفاً في جميع ميادين التقدم والرقي . . وقد لحقتها في معظم الميادين ، بل سبقتها في بعض الميادين . . لقد خرجت الحضارة العصرية ، من سيادة فرنسة المعنوية ، منذ مدة غير قصيرة ، ففقدت فرنسا بذلك مكانتها السابقة ، بصورة قطعية . .

مع هذا فإنها لا تزال تتمسك بالشهرة التي كانت قد اكتسبتها سابقاً ، على الرغم من حرمانها من التفوق الذي سبق لها أن احرزته في هذا المضمار . .

إنني أشبه منزلة فرنسة وشهرتها المبحوث عنها بمكانة « الوجوه والأعيان » الذين يتمتعون في بعض المجتمعات بشهرة المكانة التي امتازوا بها قبلاً ، دون أن يعترفوا بسمو المكانة التي أحرزها غيرهم بكل جدارة واستحقاق . . .

وكما أن بعض الناس يتأثرون ـ عادة ـ بالشهرة السابقة دون أن يلتفتوا إلى « الحالة اللاحقة » . . يظهر أن بعض كتابنا ظلوا تحت تأثير شهرة فرنسة السابقة دون أن يُنزلوا هذه الشهرة على حكم الأحوال الحالية ويزنوها بالموازين الجديدة .

- ٣ -

ولنترك مسائل المدح والأطراء والرثاء جانباً ، ولنعد إلى أصل القضية ونتساءل :

« ما هي أسباب انهيار فرنسة ، هذا الانهيار السريع ، الذي يكاد يكون فجائياً ؟ . . . » .

إن أبسط وأسهل الأجوبة التي تخطر على البال رداً على هذا السؤال هو أن فرنسة لم تكن مستعدة للحرب .

وفي الواقع أن هذا التعليل قد سيطر على الأذهان والأقلام سيطرة غريبة ، فإن معظم الذين كتبوا ، وعالجوا هذا الموضوع ، عللوا الانهيار « بعدم الاستعداد » . ليس هذا فقط ، بل أن بعضهم جعل من « عدم الاستعداد » هذا ، دليلاً على حسن الطوية ، ونبل الغاية .

فقد قرأت بين ما قرأته من الكتابات حول هذا الانهيار في المجلات العصرية ، هذا الحكم البتار : « ما غُلبوا إلاّ لأن الديمقراطية التي يعتقدونها لا تفكر إلا في السلم ولا تتسلح إلاّ بالعهود والمواثيق والقوانين والشرف ، في حين أن الديكتاتورية التي يعادونها لا تفكر إلا في الحرب ، ولا تتسلح إلا بالحديد والنار والدعاية والخيانة والكذب . . » .

أنا لا أستطيع أن أسلم بصحة هذا الرأي ، بالرغم من احترامي الشخصي لصاحبه . فلنستعرض الأعمال العسكرية والسياسية التي قامت بها فرنسة منذ انتصارها في الحرب العالمية المنصرمة . إنها استولت على مراكش من جهة ، وعلى الشام من جهة أخرى ، وجردت الحملات العسكرية على مختلف النواحي في أوروبة وآسية وافريقية ـ حاربت الأتراك ، حاربت العرب ، حاربت الروس بعد الهدنة ، اشتركت في إشغال قسم من البلاد الالمانية وأقدمت بمفردها على الاستيلاء على قسم آخر منها ، ساعدت بولندا وتشيكوسلوفاكيا في تسلحها وتنظيمها العسكري ، وحاكت أحابيل الحلف الكبير والحلف الصغير ، وأخذت تدير دفة السياسة الأوروبية بصوت مسموع ومكانة مرموقة . . . وأنفقت مبالغ طائلة في سبيل تشييد « خط ماجينو » على طول الحدود الالمانية . ورصّعت البلاد السورية والمراكشية بعدد كبير من المواقع العسكرية . . فكيف يجوز ـ والحالة هذه ـ أن نقول إن فرنسة لم تفكر إلا في السلم ؟ ولم تتسلح إلا بالعهود والمواثيق ؟ العهود والمواثيق . . . ؟ فهل احترمتها فرنسة ـ مثلاً ـ في سياستها السورية ؟ ألم تكن أعمالها هناك ـ مَن أولها إلى آخرها ـ سلسلة حركات تتلخص بالقسوة والعنف ، دون أن تتقيد بالمواثيق والمواعيد ؟ . . .

فالعامل الأصلي في الانهيار ، لم يكن عدم الاستعداد للحرب .

فعلى من يخامره أدنى شك في هذا الباب ، أن يرجع بذاكرته إلى أوائل الحرب

الحـالية ويتـذكر مـا كان يسمعـه وما كـان يقرأه من الآراء والأخبـار حول قـوة فرنسـة العسكرية .

كلنـا كنا نسمـع كل يـوم مقارنـات طويلة عـريضـة ، بـين خط مـاجينـو وخط سيغفـريد ، مقـارنات تنتهي بـوجه عـام بالمـدح والاطراء لـلأول وبـالقـدح والازدراء بالثاني . كل يوم كنا نسمع ونقرأ أخباراً شتى كلها تؤكد تفـوّق المدفعيـة الفرنسيـة على المدفعية الالمانية وتبرهن على رجحان الطيران الفرنسي على الطيران الالماني .

ولا حاجة للبيان أن مصادر هذه الأخبار والدعايات كلها كانت فرنسية . . .

وكـل شيء يدل عـلى أن فـرنسـة كـانت « تعتقـد » بـأنها مستعـدة للحـرب أتم الاستعـداد ، وبأنها ستنتصـر بدون ريب . وإلا لـما أقدمت عـلى إعلان الحـرب ، بل لأوعزت إلى بولندا بوجوب التساهل مع المانيا في قضية دانزيـغ والممر ، ولانكبّت بعـد ذلك على اتمام استعداداتها . غير أنها لم تفعل ذلك ، بل بالعكس شجعت بولندا عـلى المقاومة ، وانضمت إلى بريطانيا العظمى في توزيع « الضمـانات » ذات اليمـين وذات اليسـار ، إلى القريب والبعيـد ، ممن يطلبهـا أو لا يطلبهـا من الـدول . . . فـلا مجـال للشك في أن فرنسة كانت مغرورة بقوتها ومخدوعة في أمر قوة عدوتها .

ومن المعلوم أن القوة من الأمور النسبية ، فالقوي بالنسبة إلى شيء ، قد يكـون ضعيفاً بالنسبة إلى شيء آخر ، والغلط في التقدير في مثل هذه الأحوال ، قد ينتـج عن غلط في تقدير القوة نفسها ، أو عن غلط في تقـدير القـوة المقابلة لهـا ، أو عن غلط في كلا الأمرين . إن سير الوقائع يدل دلالة قطعية على أن فرنسة اخطأت خطأ فاحشـاً في تقدير قوة المانيا . .

فيجدر بنا أن نتساءل إذاً لماذا اخطأت فرنسة كل هـذا الخطأ الفـاحش في تقديـر قوة عدوتها ؟ .

إنني أعزو سبب ذلك إلى انخداع فرنسة بأقوال اللاجئين الموتـورين الذين كـانوا قد هربـوا من المانيـا أو طُردوا منهـا . . . وقد فتحت فـرنسة أبـوابها في وجـه هؤلاء ، وأرادت أن تستفيد منهم ، ومن تشكياتهم ودعاياتهم ، في اثارة الرأي العام العالمي ضد المانيا ، واستمالته نحو فرنسة . . في حين أن القسم الأعظم من هؤلاء اللاجئين كانوا من الطفيليين المـوتورين ، الـذين لا يرتبـطون بأي وطن من الأوطـان العتيدة ارتبـاطاً قلبياً ، ولذلك أخذوا يصورون المانيا على غير حقيقتها . صوروا النظام الجـديد الـذي قام في المانيا كمجموعة تعسفات بربرية ، تقوم بها جماعـة من الطغـاة ، فيكرههـا جميع الناس . قالوا إن كل الناس ينفرون من النازية نفوراً شديـداً ويستعدون للثـورة عليها استعداداً كبيراً .

ولقد سمعنا كلنا انعكاسات هذه الأقوال والمدّعيات : ألمانيا على أبواب ثورة داخلية ستندلع نيرانها قريباً ، فتجرف الهتلرية جرفاً عنيفاً . . كل شيء رديء هناك . حتى المعادن التي تصنع منها الأسلحة ، حتى الاسمنت الذي يستعمل في بناء الحصون ، لم تكن من الأنواع الجيدة . . .

لقد فتح الفرنسيون أبواب بلادهم لمئات الآلاف من هؤلاء الموتورين على مصاريعها ، كما فتحوا آذانهم لسماع دعاواهم ودعاياتهم ، وصاروا يصدقون كل ما يقولونه ، ولا سيما أن ما يقوله هؤلاء كان موافقاً لما يتمناه الفرنسيون كل التمني . .

وأنا أميل إلى الاعتقاد بأن ذلك كان من أهم الأسباب التي أدت إلى انخداع فرنسة في تقدير قوة عدوتها وأودت بها إلى الانكسار الفظيع . .

فقد أفاضت الجرائد كثيراً في ذكر أعمال الناس الذين سُموا باسم « الرتل الخامس » وبحثت كثيراً عن الدور الذي لعبه أولئك الذين كانوا يقومون بدعايات متسترة ـ على حساب ألمانيا ـ ويهيئون بذلك الجو النفسي الملائم لعمل الجيوش الجرارة . .

غير أنني أقول ـ إن عمل ارتال اللاجئين في فرنسة لم يكن أقل تأثيراً من عمل الارتال الخامسة في النتيجة النهائية . فإن ارتال اللاجئين الموتورين أضرت فرنسة من حيث كانت تريد خدمتها . وخدمت ألمانيا من حيث كانت تحسب أنها تضرها . . لأن دعاياتها خدعت الفرنسيين خدعة قوية في أمر قوة ألمانيا ، وجرتهم إلى الحرب والاصطدام مع قوى تفوق قواهم تفوقاً عظيماً . . وأدت بذلك إلى انخذالهم ذلك الانخذال المريع .

ـ ٤ ـ

والآن ، بعد أن حدث ما حدث فظهرت الحقائق للعيان ، تبين بصورة لا تترك مجالاً للشك أن الجيش الألماني الذي هاجم الجيش الفرنسي ، كان يفوقه تفوقاً عظيماً من جميع الوجوه المادية والمعنوية . كان يفوقه تفوقاً بارزاً من حيث العدد والتجهيزات والانضباط والقيادة . . . وبتعبير أقصر ، من حيث الكمية والكيفية . . .

من المعلوم أن ألمانيا كانت جُرّدت من السلاح ، وحرمت حق التسلح ، بعد الحرب العالمية ، فظلت محرومة من الأسلحة ومن معامل الأسلحة ، مدة تزيد على عشر سنوات . فعندما بدأت تتسلح مؤخراً ـ سراً في بادىء الأمر ، وعلناً في نهاية الأمر ـ لم تتقيد بشيء من القديم ، بطبيعة الحال . . . فاستحضرت أنواعاً جديدة من

الأسلحة الحربية ، وابتكرت أنواعاً جديدة من أساليب الحرب . ويظهر أنها كانت تمكنت من ابتكار أنواع عديدة ، فاستفادت من كل نوع منها في احدى صفحات حروبها المتوالية ـ في بولندة ، وفي النروج ، وفي هولندة . وعندما جاء دور هجومها على فرنسة استطاعت مفاجأتها بوسائط حربية وبأساليب حربية أخرى أفسدت على الجيش الفرنسي جميع الخطط التي كان قد وضعها . . .

زد على ذلك أن الجيش الألماني الذي انقضّ على الجيش الفرنسي بمثل هذه الوسائط الحربية الجديدة ، كان متفوقاً عليه تفوقاً كبيراً من حيث العَدد أيضاً . وإذا بحثنا عن أسباب هذا التفوق العددي ، استطعنا أن نذكر أموراً كثيرة منها مساعدة الموقع الجغرافي ، وسير صفحات الحرب ، وكثرة وسائط النقل ، ونظام خطط التعبئة . . وما أشبه ذلك من العوامل والأسباب ، غير أننا ـ مع كل ذلك ـ نضطر إلى التسليم ، بأن السبب الأصلي يعود إلى كثرة النفوس ، إذ من المعلوم أن نفوس ألمانيا تناهز ضعف نفوس فرنسة ، فلا غرابة والحالة هذه أن يتفوق جيشها على جيش فرنسة ، تفوقاً كبيراً ، من حيث العدد أيضاً . .

ومما يجدر بالانتباه ، أن قضية النفوس كانت من القضايا التي أخذت تشغل بال الفرنسيين وتثير مخاوفهم منذ مدة غير يسيرة . فإن الاحصاءات الموجودة تدل على أن نفوس فرنسة كانت مساوية لنفوس ألمانيا سنة ١٨٦٥ ، غير أنها لم تزد بعد ذلك خلال سبعين سنة ـ أي حتى سنة ١٩٣٥ ـ إلا ثلاثة ملايين ، في حين أن نفوس ألمانيا زادت خلال المدة نفسها أكثر من ثلاثين مليوناً .

ولا شك في أن قضية النفوس وحدها ، ليست من القضايا الحاسمة في سير التاريخ ، فإن التاريخ يرينا أمثلة كثيرة على تغلب بعض الأمم الصغيرة على بعض الأمم الكبيرة ، بالرغم من قلة عدد نفوسها . غير أن مثل هذه الحوادث لا تحدث عادة إلا عندما يكون فرق عظيم بين الأمتين من حيث مستوى الحضارة والثقافة ، وشدة الروابط الاجتماعية وقوة الايمان القومي . . واما إذا كانت الامتان متقاربتين من هذه الوجوه الثقافية والاجتماعية ـ كما هي الحالة في فرنسة وألمانيا الآن ـ فمن الطبيعي أن تكتسب قضية النفوس خطورة خاصة ، وتؤثر في سير التاريخ تأثيراً كبيراً . .

وقد انتبه عدد غير قليل من الكتاب والمفكرين في فرنسة إلى الخطر الذي أخذ يحدق ببلادهم من جراء سير نفوسها ؛ حتى أنه ظهر بينهم من قال : يجب أن نعلم بأننا في كل سنة من السنين التي تمر علينا على هذا المنوال نخسر معركة ، ونفقد جيشاً دون أن نُقدم على حرب ودون أن نشعر بهذه الخسارة ، في حين أن ألمانيا ـ بعكسنا ـ تربح في كل سنة معركة وتحصل في كل سنة على جيش جديد ، دون أن تُقدم على

حرب ، ودون أن تضحي شيئاً في سبيل ذلك . . .

إلا أن الأمور ظلت على حالتها هذه ، بل زادت خطورةً من جراء التدابير المتخذة في ألمانيا في هذا السبيل . لقد وضعت ألمانيا عدة قوانين واتخذت عدة تدابير ، لضمان تكاثر النفوس ـ زيادة على سيره المعتاد ـ في حين أن فرنسة لم تخرج عن ساحة النقد والبحث في هذا المضمار ، ولم تقدم على وضع قانون يلتفت إلى هذه القضية الحيوية بعض الالتفات إلا قبل اندلاع نيران الحرب الحالية . .

كان رجال السياسة في فرنسة يأملون أن يتغلبوا على المشاكل والمخاطر التي تنجم عن مسألة النفوس بوسيلتين غير مباشرتين :

الأولى ـ التجنيد من المستعمرات ، وتقوية الجيش الوطني بجيش المستعمرات .

الثانية ـ تكوين اتفاقات سياسية وعسكرية تربط فرنسة بكتل كبيرة قوية ، تكفي لتلافي نقص النفوس الأصلية ، بل تضمن التفوق على أعدائها من جهة النفوس أيضاً .

غير أنه مما لا مجال للشك فيه ، أن الجيوش التي تُجمع من أهالي المستعمرات وتساق إلى ساحات الحروب سوقاً ، وتُحمل على خوض غمار الحرب دون أن تشعر بدافع باطني يحبب إليها الإستقتال ، إن مثل هذه الجيوش لا يمكن أن تتكافأ والجيوش الوطنية التي تعمل وتحارب بشعور وطني وإيمان قومي . . .

وأما الاتفاقات السياسية فقلما تستقر على حال ، فلا تستطيع أن تضمن الاستقبال في جميع الأحوال ، لأن منافع الدول والأمم معضلة إعضالاً شديداً ، ومتشابكة تشابكاً كبيراً . فإذا رأت دولة ما أن من مصلحتها أن تتفق مع دولة أخرى في بعض الظروف ، فقد ترى من مصلحتها أن تلتزم الحياد ، أو أن تتفق مع غيرها عند تبدّل تلك الظروف . إن نظرة بسيطة إلى تقلب الاتفاقات السياسية ، وتطور التكتلات الدولية ، تكفي لاظهار ذلك للعيان . . .

هذه ايطاليا ، لقد انضمت إلى فرنسة وانكلترة ضد روسية في حرب القرم ، ثم اتفقت مع ألمانيا ضد فرنسا بعد استيلاء الأخيرة على تونس . ومع هذا ، لقد انضمت إلى اعداء ألمانيا خلال الحرب العالمية ، وأخيراً عادت واتفقت مع ألمانيا ضد اعدائها في الحرب الحالية . . .

وهذه انكلترة ، لقد حاربت فرنسة في عهد نابليون ، ثم اتفقت معها ضد روسيا في حرب القرم ، ثم اتفقت مع اليابان فشجعتها على محاربة الروس بعكس ما

عملته فرنسة عندئذ ، ثم اتفقت مع فرنسة وروسية ضد ألمانيا في الحرب العالمية ثم حاربت روسيا بعد انتهاء الحرب المذكورة ، وأخيراً بذلت الجهود الجبارة للاتفاق معها ، قبيل الحرب الحالية ، وكذلك الأمر في علاقات انكلترة مع تركية فإنها كانت على الدوام يوماً لها ويوماً عليها . . .

ونحن نستطيع أن نذكر عشرات الأمثلة على ذلك . . . مما يدل على أن مثل هذه الاتفاقات لا توجِد موازنات مستقرة ، بين تطور المنافع وتقلب الاتجاهات . . .

ولذلك كله ، سارت الأمور خلال الحرب الحالية ، سيراً غريباً بالرغم من الاتفاقات والضمانات السابقة . وقد أدى هذا السير إلى بقاء الجيش الفرنسي - في آخر الأمر - وحيداً إزاء الجيش الألماني في ساحات الحرب . . . فازداد بذلك تأثير التفوق العددي زيادة هائلة . . .

*

هذا ، ويجب علينا أخيراً أن نشير - حينما نبحث عن أسباب انهيار فرنسة - إلى سبب آخر ، سبب يجب أن يُعطى الموقع الأول بين سلسلة الأسباب ، بل يجب أن يُعتبر السبب الأصلي ، بل هو علة العلل . . .

هذا السبب هو علائم بلبلة الآراء وفوضى النزعات التي كانت تسود فرنسة ، إزاء مظاهر وحدة الكلمة وتراصّ الصفوف التي كانت تميز ألمانيا . . .

لقد دخلت ألمانيا الحرب ، وهي متحدة الكلمة ، تسير وراء زعيم واحد تثق به ثقة لا حد لها ، وتتجه نحو هدف عام يعرفه الكل ، ويقدسه الجميع . . .

في حين أن فرنسة ، كانت منقسمة على نفسها في معظم أمورها . وقد بلغت فيها الشهوات الحزبية ، درجة تكاد تتغلب على الفكرة الوطنية . وتعددت الأحزاب تعدداً لا مثيل له في التاريخ ، فلم يبق حزب قوي يستطيع أن يضمن الأكثرية ويدعم الحكومة حتى بالاتفاق مع حزب ثان ، فأصبح من المحتم على كل حكومة تسعى إلى تسيير دفة الأمور أن تتفنن في اجراء ترتيبات معقدة بين عدة أحزاب متخالفة . . .

وبما أن مثل هذه الترتيبات المعقدة تكون معرضة للتغيير السريع بتقلب الظروف ، فقد أصبح التوازن الحكومي شبيهاً بالأعمال البهلوانية التي يقوم بها اللاعبون على الحبال . . .

ولا حاجة للبيان ، أن تعدد الأحزاب وتنازعها على هذا الوجه كان يفسح مجالاً

واسعاً لدسائس النفعيين ، ويزعزع ثقة الشعب بالحكومات ، ويسيء إلى سمعتها إلى حد كبير . . .

وإذا كان تسيير دفة الشؤون بين هذه النزعات المتخالفة ، من الأمور الممكنة في الأحوال الاعتيادية ، فلا شك في أنه يصبح من المستحيل خلال الأزمات الحربية ، لأن الحرب تحتاج إلى أعمال منسقة تنسيقاً تاماً ، لا سيما في هذا العهد الذي أصبحت فيه الأعمال الحربية غير مقتصرة على الجيوش المحاربة وحدها ، وغير منحصرة بساحات القتال وحدها ، بل شاملة جميع أبناء الوطن وجميع أقسام البلاد . . . فالبلبلة في الآراء والفوضى في الأعمال ، من الأمور التي لا يمكن أن تلتئم مع ضرورات الحرب بوجه من الوجوه . . . .

فإذا أقدمت أمة ما على الحرب وهي متبلبلة الآراء ، فلا بد من أن تتعرض إلى كوارث ونكبات . . .

وهذا ما حدث فعلاً في فرنسة ، لأن البلبلة التي كانت تضطرب في نفوس أبنائها حين بدء الحرب ، ازدادت يوماً فيوماً ، من جراء سير الوقائع من جهة ، وبتأثير اذاعات الألمان من جهة أخرى . ولا شك في أنها كانت علة العلل في أمر الانهيار . . .

*

وهنا مسألة هامة تتطلب التفكير والاهتمام .

إن الحالة المبحوث عنها ، من تعدد الأحزاب وبلبلة الآراء لم تكن من الأمور الشاذة في فرنسة ، بل هي من الأمراض الاجتماعية المزمنة ، التي كانت تنخر روح فرنسة منذ مدة غير يسيرة . ومع هذا فإنها لم تؤدِّ في الماضي إلى انكسار وانهيار ، لأن الأحزاب كانت تنبذ - عادة - منازعاتها عندما تشعر بالخطر الخارجي ، وتسرع إلى الاتحاد والتكتل ، عندما يدعوها إلى ذلك داعي الوطن كما حدث فعلاً في الحرب العالمية . . .

لماذا لم يحدث ذلك في هذه المرة ؟ لماذا لم تتحد الأحزاب أمام الخطر الهائل الذي أحدق بفرنسة ، منذ نشوء الحرب الحالية ؟ .

لا شك في أن ذلك لا يمكن أن يعلل إلا بالقول : إن داء الحزبية كان قد اشتد إلى درجة أصبح معها لا يتأثر من ضرورات الحرب ، وان روح الفردية كانت قد تقوّت إلى درجة تحوّلت معها إلى أنانية مفرطة ، تتغلب على الروح الاجتماعية والروح الوطنية . .

غير أن هذا التعليل لا يحل المسألة حلاً مرضياً ، فيجب علينا أن نتساءل - بعد هذا التعليل أيضاً - « لماذا اشتدت روح الحزبية إلى هذه الدرجة ، ولماذا تقوت فكرة الفردية إلى هذا الحد ؟ » .

إنني أعتقد أن الدعايات الشديدة المستمرة التي قامت في طول فرنسة وعرضها منذ عدة سنوات ، ضد النظام النازي والفاشيستي ، لم تخلُ من التأثير الشديد في هذا الباب . إن تلك الدعايات كانت تستهدف - في حقيقة الأمر - تبغيض ألمانيا وايطاليا ، غير أنها كانت تهاجم ، قبل كل شيء ، « النظام الجديد » الذي اختارته لنفسها كل واحدة من هاتين الدولتين ، مهاجمة عنيفة وذلك من وجهة تأثيره في الحرية الفردية في الدرجة الأولى . ولذلك أخذت الدعايات المذكورة تستمد قوتها من « فكرة الحرية » و « نزعة الضمير » المنتشرة في البلاد ، فصارت تزدري حتى « روح التكاتف والتراصّ » و « دعوة التوحد والتضحية » التي يتضمنها هذان النظامان . فإن الكتّاب والخطباء كلما أرادوا تزييف النازية ومهاجمتها لوّحوا أمامها بعلم « الحرية المطلقة والفردية التامة » دون أن ينتبهوا إلى التأثيرات والأضرار التي قد يحدثها ذلك في داخلية البلاد ونفسية الناس . وعلى هذا الوجه تقوّى الداء وتأصل ، وصار الناس يمجدون « الحرية » تمجيداً مطلقاً ولو أدت إلى الفوضى ، وينفرون من « التوحد » ولو أصبح ضرورياً لحياة الأمة ، ويسترسلون في « الفردية » ولو تحولت إلى أنانية فتاكة . . .

وفي الواقع أن محاذير ومخاطر هذه الأمور لم تبق خافية على أنظار جميع الفرنسيين ، بطبيعة الحال . فقد ظهر بين رجال الفكر والسياسة مَن شعر بالأخطار التي ستنجم عن استمرار هذه الأحوال ومن أخذ يعارض الإفراط في فكرة الحرية فيدعو إلى لم الصفوف وتوحيد الكلمة ، حتى ظهر من يحمل بعض الحملات على روح الفردية والأنانية . . . غير أن الدعايات التي ذكرناها آنفاً ، كانت قد أثرت في النفوس تأثيراً عميقاً حتى صار الناس ينظرون إلى كل محاولة من هذا القبيل ، كضرب من ضروب النازية أو الفاشية ، كما أخذوا يتهمون معتنقي مثل هذه الآراء بخدمة الأعداء وخيانة الوطن . . .

وعبثاً حاول بعض الكتّاب والمفكرين أن يرشدوا الناس إلى سواء السبيل بقولهم : « يجب أن نكره النازية من حيث سياستها الخارجية وحدها ، فلا يشمل كرهنا لها جميع أعمالها وجميع خصائصها . . . ومهما كرهنا النازية من وجهة سياستها الخارجية فيجب أن لا ننكر أنها قامت بأعمال هامة في سبيل الاصلاحات الداخلية ، والتنظيمات الشعبية . إن بعض تلك الأعمال الداخلية لجديرة بالاعجاب ، وحَرِيّة بالاقتداء . . . » غير أن أصوات هؤلاء المفكرين ضاعت بين صرخات الصارخين ، الذين ظلوا يهاجمون النازية من جميع الوجوه باسم

الحرية . . . ويستخفون بجميع مبادئها وأعمالها باسم الفردية . . .

ولذلك استمرت في فرنسة الأمراض والنزعات السياسية والأخلاقية النفسية التي شـرحناهـا آنفاً ، خـلال الحرب أيضـاً . . . ولا شك في أن هـذا الاستمرار كـان أهم الأسباب التي أدت إلى الانهيار .

*

ومن الغريب أن دعايات « الحرية والفردية » المفرطة ، التي كانت قد انتشرت في فرنسة ، فأودت بها إلى الانهيار ـ كما أسلفنا ـ أثرت تأثيراً عميقاً في آراء عدد غـير قليل من كتّاب العرب ، فراح البعض منهم يردد تلك الدعايات بحماس شديد ، حتى بعد ظهـور أضرارهـا الفادحـة للعيان ، في الـويلات والنكبـات التي جـرتهـا عـلى فـرنسـة نفسها . .

فقد نشر أحد الكتّاب المشهورين في إحدى المجلات المصريـة الشهيرة ، سلسلة مقالات حول فـرنسة ، بعـد انهيارهـا ، ابدى فيهـا من الآراء ، ما يستـوقف النظر ، ويتطلب النقاش . .

فقد وصف الكاتب المحترم في مقالاته هذه الحالة النفسية التي كانت قـد وصلت إليها فرنسة قبل الحرب الحالية بكلمات صريحة ، فكتب ـ في جملة مـا كتبه في الأقسـام المختلفة من مقالاته المذكورة ـ الكلمات التالية :

« كانت شهوة السياسة الحزبية في فرنسة أقوى من الفكرة الوطنية . . . امتلأ الفرنسي بنفسـه ، وأصبح الفرد كل شيء ، يؤثر نفسه بكل شيء ، يؤثـرها بـأعظم حظ ممكن من اللذة ويجنبهـا أعظم حظ ممكن من الألم . . استجاب الفرنسي لـداعي العقل الفـردي ، أكثر ممـا استجاب لـداعي العقل الاجتماعي » .

« قد رأى الفرنسي أن الحياة لم تُمنح للناس ليبذلـوها في الجهـود المضنية التي تنتهي إلى الفنـاء ، إنما مُنحت للناس لتكون عليهم نعمة ، ليستمتعوا بلذاتها وليتجنبـوا آلامها . . . فـرنسة آثـرت نفسها بالعافية واللذة ونعيم الحياة . . . » .

أنا لا آخذ على نفسي مسؤولية هذه الكلمات القاطعة ، ولا اشترك في إطلاقهـا وتعميمها على هذا المنوال . مع هذا أرى من الضروري أن نُنعم النظر فيها قليلاً . . .

إن هذه الصفات الأخلاقية ، وهذه النزعات النفسية ، هذه الفردية المفرطة التي لا تفكـر بشيء غير نفسهـا . . والتي تتجنب الجهود المضنيـة على اختـلاف أنواعهـا ، فتحاول أن تنال أعظم حظ ممكن من اللذة . . . والتي تؤثر نفسها على الدوام بالعـافية

واللذة ونعيم الحيـاة . . . كل من ينعم النـظر في هذه الصفـات ، يضـطر إلى التسليم معي ، بأنها تدل على شيء واحد ، هو « التفسخ الأخلاقي » وتؤدي بطبيعة الحال إلى نتيجة واحدة ، هي « الانحلال الاجتماعي » .

غير أن الكاتب المحترم ، لا يقول بذلك أبـداً بل بـالعكس ، يرى في كـل هذه الصفـات والحالات ، أثـراً من آثار التحضـر والتثقف ونتيجـة من نتـائج الإمعـان في الحضارة والثقافة . إنه يعلل كل واحدة منها بقوله : « إن الفرنسيين قد تحضـروا وامعنوا في الحضارة » . و « مضت فرنسة في الحضارة إلى أقصى غاياتها » . . . ويكرر ذلك مرات عـديدة ، ويعتبر كل ذلك من نتائج « الحضارة والثقافة » الطبيعية . حتى أنه يقول بكل صراحـة ما يأتي :

« إن أية أمة من الأمم تبلغ من الثقافة ما بلغته فرنسة ، وتسلك بالثقافـة الطريق التي سلكتهـا فرنسة ، منتهية من غير شك إلى مثل ما انتهت إليه فرنسة . . . » .

ويزيد على ذلك قائلاً : « نحن بين طريقين : إما أن نستقبل الثقافة احراراً (يريد مثـل ما تفعل فرنسة) وإما أن نستقبلها مقيدين » (يريد مثل ما تفعل ألمانيا) كما يقول أخيـراً : « أما أنا فاختار الطريق الأولى ، وأقبل أن أتعرض لما تتعرض له الأمم الحرة من ألوان الخير والشر ومن اختـلاف الخطوب » . . ويعلل اختيـاره هذا بنـزوعه إلى الحـرية حيث يقـول : « إن الحيـاة الحرة . . خليقة بأن نشتريها بأغلى الأثمان » .

أنـا لا أستطيـع أن أشارك الكـاتب المحترم في آرائـه هذه . . أنـا لا أسلم بـأن الأحوال والصفات التي ذكرها « نتيجة طبيعية » للإمعان في الحضـارة والثقافـة ، كما لا أسلم بصحة رأيه في انحصار الأمر بين طريقين « لا ثالث لهما » .

والواقع أن حـديثي هذه الليلة قـد طال ، فلم يبق أمـامي ـ مع الأسف ـ مجـال للاسهاب في هذا المضمار . .

ومـع هذا ، أرى من الضـروري ، أن لا أنهي حديثي دون أن أنـاقش الكاتب المحترم قليلاً ، في كلمته الأخيرة .

« إن الحياة الحرة . . خليقة أن تشترى بأغلى الأثمان . . » إن سياق الكلام ـ في المقالات المذكورة ـ يـدل دلالة صـريحة عـلى أن الثمن الذي هـو موضـع البحث هنا مـا هو إلا « كيان الدولـة » و « حياة المجتمـع » . . . هل يجب علينـا أنْ نسلّم بهذا القـول ؟ هل يجوز لنا أن نقدّم « الحياة الحرة » على « كيان الدولة » وعلى مصالح المجتمع الحيوية » ؟ وهل يمكننا أن نضحي « الحياة الحرة » بتضحية حياة الدولة وكيانها ؟

أنا لا أرى داعياً لاطالة الحديث في الإجابة على هذه الأسئلة . مع هذا أرى من

المفيد أن أذكر كلمة قالها قبل الحرب العالمية ، أحد عظماء السياسة في فرنسة ، وكلمة أخرى كتبها أحد كبار الأدباء . .

في عهد وزارة بريان استعد الاشتراكيون لحمل الناس على اضراب عام ، يشمل عمال وموظفي السكك الحديدية ، ليشلوا جميع الأعمال والحركات في طول البلاد وعرضها . وعندما اطلعت الحكومة على أخبار هذه الاستعدادات اعتقدت بأن ذلك قد يؤدي إلى كارثة كبرى ، نظراً لما كانت تعرفه عن استعدادات ألمانيا ، ونظراً لاحتمال إقدامها على انتهاز فرصة هذا الاضراب العام ، للاستيلاء على البلاد استيلاء فجائياً . . فقررت الحكومة الفرنسية أن تتخذ تدبيراً حاسماً في هذا المضمار ، والتجأت إلى طريقة التجنيد ، جندت عمال السكك الحديدية قبل يوم الاضراب ، وأمرتهم بتسيير القطارات ، بصفتهم جنوداً وضباطاً . ومن المعلوم أن العامل حر في العمل أو الاضراب ، غير أنه يفقد هذه الحرية ـ بطبيعة الحال ـ عندما يصبح جندياً . . وهكذا استطاعت الحكومة أن تفسد على الاشتراكيين ترتيباتهم في هذا الباب ، وأن تحول دون تحقيق الاضراب العام ، الذي كانوا يستعدون له منذ مدة طويلة .

هذا التدبير سبب هياجاً عظيماً على الحكومة ، فأخذ المعارضون يقولون : « هذا إخلال باحكام الدستور ، وأنه تعدّ على حق الحرية . . » غير أن رئيس الحكومة رد على هذه الاعتراضات قائلاً : « إن العمل الذي قمتُ به لا يخالف الدستور ، ولا يكوّن تعدياً على حرية الافراد . مع هذا أود أن أصرح من على هذا المنبر ، بأنني لو كنت أعلم بأنه مخالف للدستور ولحقّ الحرية ، لما احجمت عن القيام به . . لأنني أعتقد أن حياة فرنسة أغلى من الدستور ، وأثمن من حرية الافراد . . . » .

إن ساسة فرنسة الذين كانوا يحملون مثل هذا الاعتقاد قادوا بلادهم إلى النصر في الحرب العالمية المنصرمة . . وأما رجال فرنسة الجدد الذين فقدوا هذا الاعتقاد وصاروا يعتبرون هذه الأعمال ضرباً من ضروب النازية . . . فقد أوصلوا بلادهم إلى وادي الانحدار . . .

*

هذا وأذكر أنني كنت حضرت رواية في باريس قبيل الحرب العالمية ، عنوانها « الغرب » يصور مؤلفها ضابطاً من كبار ضباط البحرية الفرنسية يعيش مع راقصة مغربية تنحدر من عشيرة مراكشية . وكان للضابط أخ شاب مأخوذ بالآراء والنظريات المعارضة للخدمة العسكرية ، فيفرّ من الجندية . غير أن أخاه الضابط يتمكن ـ بعد سلسلة من الوقائع ـ من اقناعه واعادته إلى حظيرة الخدمة الوطنية . وهنا تقف المرأة

المغربية مدهوشة أمام خضوع الشاب لكلمات أخيه هذا الخضوع ، فتتساءل : « ألم يكن هذا الشاب حراً ؟ فكيف يخضع لأوامر الضابط كأنه كلب مطوق بالأغلال ، أو عبد يمتثل أوامر سيده الذي اشتراه بماله الخاص ؟ » .

أما الضابط فيبتسم لأقوال الراقصة المغربية . وعندما يختلي بها يقول لها ما مؤداه ـ « إن الحرية في نظرنا نحن الغربيين ، هي غير الحرية التي تقولون بها وتطلبونها أنتم الشرقيين ، الحرية في نظركم أن يرتدي المرء برنسه ، ثم يمتطي صهوة جواده ، فينطلق في الصحراء حيث شاء . . . أما نحن ، فلا نطلب تلك الحرية ، فإن كلاً منا يحمل في عنقه أغلالاً وأصفاداً . . أغلالاً وأصفاداً مصنوعة من ذهب معنويّ . . من ذهب العنعنات والتاريخ والواجبات . . . نحن نحب تلك الأصفاد بكل جوانحنا ، ونحمل تلك الأغلال بكل سرور . . نحن نبجل تلك الأصفاد والأغلال ، بل نقدسها كل التقديس . . » .

إن الجيل الذي يقول مثل هذه الأقوال ، قد قاد فرنسة إلى المجد والنصر ، وأما الجيل الذي عدل عن تقديس الأغلال الاجتماعية فأخذ يتمسك بالحرية المطلقة . . الجيل الذي ترك التساند الاجتماعي جانباً ، فأخذ يقدس الفردية . . هذا الجيل . . قد أوصل فرنسة إلى هذه النكبات . .

إنني أعتقد بأن هذه النتيجة يجب أن تكون درساً ثميناً لجميع شبان العرب . . فأنا أود أن يعرف المرء أن الحرية ليست غاية قائمة بنفسها بل هي واسطة من وسائط الحياة العالية . . والمصالح الوطنية التي تتطلب من المرء أحياناً تضحية الحياة والنفس لا بد أن تتطلب منه تضحية الحرية أيضاً في بعض الظروف . . .

إن كل من لا يضحي بحريته الشخصية في سبيل حرية أمته ـ عندما تقتضيه الحال ـ قد يفقد حريته الشخصية مع حرية قومه ووطنه . . . وكل من لا يرضى أن « يُفني » نفسه في الأمة التي ينتسب إليها ـ في بعض الأحوال ـ قد يضطر إلى « الفناء » في أمة من الأمم الأجنبية التي قد تستولي على وطنه ، في يوم من الأيام . . .

ولذلك ، انني أقول بلا تردد ، وعلى الدوام : الوطنية ، والقومية قبل كل شيء ، وفوق كل شيء . . . حتى فوق الحرية ، وقبل الحرية .

بين القوى المادية والقوى المعنوية(*)

إن الوقائع والحوادث الهائلة التي تتمخض عنها الحرب الحالية كل يوم ، تلقي ضوءاً جديداً على نواميس السياسة والاجتماع ، فتحمل الكثيرين من المفكرين على إعادة النظر في آرائهم السياسية وفي معتقداتهم الاجتماعية .

غير أن البعض منهم أخذوا يتسرعون في تفسير الحادثات الحالية على علاتها ، فصاروا يقولون : إن الحرب الحالية حرب مكائن ، تضطرم نيرانها بين الماديات والمعنويات ، وتعلن انهزام القوى المعنوية أمام القوى المادية ، وهي حرب مادية لا تعتمد على فضائل النفس وخصائص الروح ، بل تعتمد على سرعة الدواليب وقوة الانفجار في مكائن النقل والتدمير ، من سيارات وطيارات ، ودبابات ، وغواصات ، ومدافع ، وألغام ، وبارجات . . . ودارعات . . .

لا شك في أن هذه الوسائط المادية لعبت ولا تزال تلعب دوراً هاماً في الحرب الحالية ، ولا شك في أن دور هذه الوسائط المادية تعاظم وتفاقم بدرجة هائلة في الحرب الحالية ، بالنسبة إلى ما كان عليه في الحروب الماضية . فلا يخطىء من يقول لذلك إن هذه الحرب كانت ولا تزال حرباً ميكانيكية ، لا يُحرَز النصرُ فيها دون تفوق الميكانيكيات . .

غير أن هذه الحقيقة لا تعني غلبة الماديات على المعنويات ، بوجه من الوجوه . . . فلا يجوز لأحد أن يستدل منها على زوال أهمية فضائل النفس وخصائص الروح في تسيير الحرب ، لأن جميع هذه الوسائط الميكانيكية لم تكن مادية بحتة ، بل

(*) أذيعت في بغداد عام ١٩٤٠ .

أن كل نوع منها يخفي وراءه مجموعة هائلة من القوى المعنوية . . .

إن الدهشة التي تستولي على عقولنا ، عندما نسمع أخبار هذه الوسائط المادية ، من حصون ودبابات وطيارات وقنابل وقذائف وحاملات طائرات ، والغام ممغنطة . . . إن هذه الدهشة يجب أن لا تُنسينا القوى العقلية والنفسية التي تكمن وراء جميع هذه المكائن المادية ، فتسيرها نحو أهداف معينة ، وفق خطط معضلة ، وضعت بعد تأملات دقيقة . . عندما نسمع أخبار هذه الوسائط المادية الهائلة ، يجب أن لا ننسى العقول النظرية التي اخترعت أسسها ، والعقول العملية التي بحثت في طرق تطبيقها بما يلائم حاجات الحرب ، وطرق الاستفادة منها في سبيل غايات الحرب . . والعقول الادارية والاقتصادية التي عملت كل ما يلزم لإحضارها وانتاجها ، وقوة التدبير والتبصر التي عملت كل ما يلزم لتكديسها في الوقت اللازم وتوزيعها على المحلات اللازمة من جهة وتدريب الجنود والضباط والقواد على كيفية استعمالها من جهة أخرى . . . وروح الاقدام والشجاعة والتضحية التي تتجلى في تسيير كل واحدة منها . . وأخيراً ، وعلى الأخص ، روح الوطنية التي توحد أعمال وعواطف الملايين الذين يخدمون ويستخدمون هذه المكائن في خطوط القتال ووراءها . . . ولا سيما روح التنظيم التي توحد أعمال الملايين من المكائن والملايين من البشر وتسيّرها إلى اتجاه واحد . .

جرِّدوا هذه المكائن ، من دبابات وغواصات وطيارات والغام ، وقذائف . . . جرِّدوها من القوى المعنوية التي ذكرتها آنفاً ، تروا أنها تتحول في لمح البصر إلى كتل جامدة ، لا تعمل ولا تتحرك ، أو تنفجر انفجاراً أعمى فلا تخدم غاية من الغايات ، بل قد تخرب حتى المعامل والأيدي التي صنعتها وتمحو الرجال والأدمغة التي عملت لإحضارها . . . فإذا كانت هذه الوسائط المادية قد عملت أعمالاً هائلة ، ولا تزال تعمل أعمالاً محيرة . . . فما ذلك إلا لأن وراءها أدمغة مفكرة وعواطف هائجة . . تحركها وتسيّرها نحو غايات خاصة ، وفق خطط مدبرة ، وُضعت بعد تفكير شامل وتأمل عميق . . .

ولهذه الأسباب كلها ، نستطيع أن نقول بدون تردد : إن فضائل النفس ، وخصائص الروح لم تفقد أهميتها في الحرب الحالية ، بل أنها لا تزال من أهم القوى المسيِّرة لها . .

لا شك في أن الخصائص النفسية التي كانت تكفي لضمان النصر في حروب السيوف ، لم تعد تكفي لذلك في حروب الدبابات ، والخصائص الروحية التي كانت تكفي لضمان النصر في حروب تستند على هجوم الخيّالة ، لا تكفي في حرب تستخدم

في الهجوم الدبابات والطيارات والمظلات . . فلا مجال للانكار أن الحروب الحالية تتطلب خصائص روحية من نوع جديد ، وفضائل أخلاقية من نوع خاص ؛ غير أنه يجب ألا يغرب عن البال ، أن أسس هذه الخصائص والفضائل لا تزال هي هي : روح الطاعة في الافراد ، وقوة التدبير في القواد ، وروح التضحية وفكرة الوطنية عند الجميع . . .

ومما يجدر بالانتباه ، بوجه خاص ، أن الخصائص النفسية التي تلعب دوراً هاماً في الحروب الجديدة هي الخصائص الاجتماعية بوجه عام . . هذا ، ولو سألني سائل : « ما هي أدهش المكائن التي استعملت خلال هذه الحرب ؟ » لقلت بدون تردد هي : « ماكينة التنظيم والتدبير » لأنني أعتقد أن تأثيرات القيادة العسكرية والاقتصادية والتنظيم الاجتماعي والتماسك القومي خلال هذه الحرب ، كانت أعظم وأهم بكثير من عمل جميع المكائن التي استحدثت واستخدمت خلالها ، لأنها كانت مدهشة في حد ذاتها ، كما كانت الواسطة الفعالة في اختراع وإحضار وتسيير المكائن المذكورة نفسها . . .

*

إن الحرب لا تزال مستمرة . ولا نغالي إذا قلنا انها قائمة بين « تنظيمات الامبراطورية البريطانية » وبين تأسيسات « الاشتراكية الوطنية الألمانية » من حيث الأساس . إن كلاً منا يستطيع أن يتنبأ عن نتيجة الحرب بعض التنبؤات ، كما يستطيع أن يدعم تنبؤاته هذه ببعض الحجج والبراهين . غير أنه لا يستطيع أن يدلي برأي حاسم في الموضوع . مع كل هذا أعتقد بأنه يحق لي أن أدعي دون أن أخشى تكذيب الوقائع في يوم من الأيام : إن النصر سيكون حليف التنظيمات التي ستظهر أشد تماسكاً وأكثر صلابة وأبعد نظراً ، وأقوى تدبيراً ، من نظيرها . . وبتعبير آخر ، أن الكلمة الحاسمة في الحرب الحالية أيضاً ستكون للقوى المعنوية ، بالمعاني التي شرحتها آنفاً .

أصول ستر الحقائق(*)

إن الفكر البشري ينزع دوماً إلى « معرفة الحقائق » ، ويبذل جهوداً كبيرة لرفع الأستار التي تخفيها عن الأبصار ، وكشف الأسرار التي تكتنفها من جميع الجهات ، فلا نغالي إذا قلنا إن تاريخ العلم وتاريخ الفلسفة وتاريخ الأديان إنما هي بمثابة قصص للجهود المتواصلة التي بذلها الفكر البشري في سبيل اكتشاف الحقائق على هذا المنوال . . .

زد على ذلك ، أن بعض المفكرين لم يكتفوا بالسعي وراء « كشف الحقائق » فحسب ، بل بذلوا قصارى جهدهم لتعيين « أقوم السبل » التي تؤدي إلى اكتشاف الحقائق ومعرفتها أيضاً . فقد دوّن أرسطو طاليس أصول « منطق القياس » في القرون الأولى ، كما وضع « باكون » أسس منطق « الاستقراء » في أواخر القرون الوسطى ، وكتب ديكارت مقاله الشهير عن « أصول كشف الحقائق » في أوائل القرون الأخيرة ، كما ثبّت « كلود برنار » أسس الطرق التجريبية في القرن التاسع عشر . وقد ظهر بعد ذلك كثير من العلماء والفلاسفة الذين بحثوا عن طرق اكتشاف الحقائق ، في كل ساحة من ساحات العلم والمعرفة . . . هذا في ساحة الطبيعيات ، وذاك في ساحة النفسيات ، هذا في ميادين الاجتماع بوجه عام ، وذاك في ساحة الاقتصاد بوجه خاص . . . هذا في ميادين الفلك ، وذاك في أغوار التاريخ .

وهكذا ، تعبّدت أمام الفكر البشري طرق « كشف الحقائق » على اختلاف أنواعها . . . وأصبحت هذه الطرق من أهم مباحث الفلسفة العلمية .

*

(*) حديث أذيع من راديو بغداد سنة ١٩٤١ .

غير أنه ، مما يجدر بالانتباه أن بجانب هذه الجهود العظيمة المبذولة في سبيل « كشف الحقائق » ، جهوداً معاكسة لها كل المعاكسة تُبذل أحياناً . . . جهوداً تستهدف عكس ما يستهدفه العلماء والباحثون . . . جهوداً ترمي إلى « إخفاء الحقائق وكتمها » ، عوضاً عن إظهارها وكشفها . . . جهوداً تستهدف « ستر الحقيقة عن الأبصار » و « برقعتها ببراقع خداعة » ، تُظهرها بمظاهر تختلف عن وجوهها الأصلية اختلافاً كلياً . . .

إن هذا النوع من الجهود يبذل ـ عادة ـ بقصد دفع الأضرار أو جلب المنافع ، عندما يُتوقع حدوث ضرر من شيوع الحقيقة ، ويُنتظر حصول فوائد من كتمانها أو من ذيوع عكسها . . .

إن المنافع أو الأضرار التي تُستهدف في مثل هذه الأحوال كثيراً ما تكون شخصية . . مثل ستر عيب ، أو إخفاء جريمة ، استجلاب ودّ ، أو تسكين غضب ، تقديم خدمة لصديق ، أو أخذ ثأر من عدو . . . ومن المعلوم أن أمثلة ذلك تشاهد كل يوم في سلوك الكثيرين من الأشخاص ، في علاقاتهم العائلية ، ومعاملاتهم الاقتصادية . . وحياتهم الاجتماعية . .

غير أن المقاصد التي تُستهدف في مثل هذه الجهود ، قد تخرج عن نطاق المصالح الشخصية ، وتدخل في ساحات المصالح العامة ، وقد تكون من جملة المصالح القومية والوطنية .

وأما أمثلة الجهود التي تُبذل ـ بهذه الصورة ـ في سبيل « ستر الحقائق وبرقعتها » ـ بقصد خدمة المصالح العامة ، فتشاهد كل يوم ، فيما يسمى عادة باسم « الدعاية » .

*

إن الدعاية السياسية لعبت دوراً هاماً في تاريخ الأمم ، منذ أقدم العصور إلى الآن . فإنها من حيث الأساس تكون سريّة في بعض الأحوال ، وعلنية في الأحوال الأخرى ، فردية في بعض الأحوال ، ومعشرية في الأحوال الأخرى .

وأما وسائل الدعاية فقد كانت في بادىء الأمر منحصرة في الأحاديث والخطب ، ثم انضم إليها ـ منذ قرنين ـ الصحف والنشرات المطبوعة ، وأخيراً ، انضم إلى كل ذلك الأفلام السينمائية والإذاعات اللاسلكية . .

تعمل الدعاية السياسية عملها بهذه الوسائل المتنوعة بلا انقطاع في حالتي السلم

والحرب . غير أنها تكتسب خطورة خاصة خلال الأزمات والحروب .

كان « نابليون » يقدر أهمية الدعاية حق قدرها فقال : « إن أربع جرائد معادية تستطيع أن تأتي باضرار ، تفوق أضرار جيش مؤلف من مائة ألف جندي » . إن تأثير الصحافة في هذا المضمار ، قد ازداد زيادة هائلة ، منذ عهد نابليون ، بسبب انتشار التعليم من جهة ، وتطور وسائط الحرب من جهة أخرى . وقد ثبت أن الصحافة لعبت دوراً هاماً في جميع الحروب التي نشبت منذ ذلك العهد ، ولا سيما في الحرب العالمية الأولى . . .

إن وسائل الدعاية التي توسّل بها المتحاربون خلال الحرب العالمية المذكورة صارت موضوع ابحاث كثيرة ، فلم تبق خفيّة عن الأنظار . فمن المفيد أن نستعرض أهم الحقائق التي ظهرت من تلك الأبحاث ، حول دور الدعاية في الحرب العالمية .

من المؤكد أن جميع الدول المتحاربة ، صرفت جهوداً جبارة ومبالغ طائلة ، في سبيل الدعاية . وأما ساحات الدعاية ، فكانت واسعة ومتنوعة جداً : دعاية في داخل البلاد ، دعاية في بلاد الأعداء ، دعاية في البلاد المحاربة . . .

دعاية في داخل البلاد نفسها ـ بقصد ادامة روح الحماسة ، ومكافحة روح التذمر والاستسلام والقنوط ، دعاية لنشر الايمان بالنصر النهائي ، بغية حمل الناس على تحمّل أعباء الحرب على اختلاف أنواعها ، انتظاراً لذلك النصر المأمول . . . دعاية في بلاد الأعداء ـ بقصد كسر معنويات الناس وإخماد حماستهم عن طريق زعزعة ايمانهم بضرورة الحرب من جهة ، وتخفيف اعتقادهم بالنصر النهائي من جهة أخرى ، وإحداث بلبلة في الأفكار ، وتغذية روح التخوف والتذمر والتردد والقنوط التي تؤدي إلى الاستسلام . دعاية في البلاد المحايدة ـ بقصد التأثير على المحاربين من جهة ، وعلى المحايدين من جهة أخرى . . وبغية توليد تيارات فكرية وسياسية ، تضمن مساعدة البلاد مساعدة معنوية ، أو اقتصادية أو سياسية ، وقد تؤدي إلى محالفة ومساعدة عسكرية فعلية .

وقد تبين من الأبحاث الكثيرة التي نشرت بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى ، أنه قد حدث صراع عنيف بين الحلفاء وبين الدول المركزية ، في ساحة الدعاية . فقد وزّع اللورد نورثكليف الذي كان يتولى شؤون الدعاية الانكليزية ، على صحف امريكا نحو مائة وخمسين مليوناً من الدولارات في سبيل الدعاية للحلفاء ، كما صرفت الحكومة الألمانية لنفس الغاية نحو مائتي مليون من الماركات خلال السنتين الأولين من الحرب . . كما تبين أن دعاية « دول الحلفاء » كانت أقوى وأعم وأنجع من دعاية « الدول المركزية » .

قال الكردينال « مرسييه » عندما سافر إلى امريكا بعد الهدنة واطلع على حقائق الأمور وبواطنها : « إن الحلفاء أحرزوا النصر بفضل جهود الصحافة » .

وقال الزعيم « نيكولاي » الذي كان رئيساً لشعبة الاستعلامات في أركان الجيش الالمانية : « إن الحلفاء تغلبوا على الجيش الألماني بواسطة الدعاية » كما قال : « بأن الصحافة كانت أقوى أسلحة الدعاية التي استخدمها الحلفاء ضد الألمان » . (ولا يغربنّ عن البال أن الاذاعة اللاسلكية لم تكن قد خرجت إلى عالم الوجود إذ ذاك) . ولذلك نجد أن هتلر شعر بتقصير الألمان في هذه الساحة ، خلال الحرب العالمية ، فاعتنى اعتناءً خاصاً بها ، قبل نشوب الحرب الحالية وخلالها .

إن الدعاية لا تتقيد كثيراً ، بقيود الحقيقة ، ولا تتورع عن اخفائها تارة وتشويهها طوراً ، كما أنها لا تتحاشى مخالفتها تماماً ولا تتأخر عن خلق الأكاذيب واذاعتها أيضاً عند الاقتضاء . فكثيراً ما تلجأ الدعاية إلى اختلاق الأكاذيب كما تبذل جهوداً كبيرة لإظهار هذه الأكاذيب بمظهر الحقائق الناصعة التي لا تقبل الشك . .

وقد عبر « كنغسلي مارتن » ، أحد أركان الصحافة الانكليزية عن فلسفة ذلك بأسلوب بليغ ، في أحد اجتماعات لجنة التعاون الفكري التابعة لعصبة الأمم ، حيث قال ما مؤداه :

« إن الحرب تبيح للانسان أن يخرج على الكثير من المبادىء الأخلاقية التي شبّ عليها ، وتحتم عليه أن يقدم على أعمال كثيرة ، تعتبر من المحظورات في الأوقات الاعتيادية . فلا غرابة إذا ما جعلت الكذب مباحاً ، بل إذا ما أظهرته بمظهر الواجب في بعض الأحيان . . . » .

هذا ومما يستحق الانتباه ، أن بين الحقيقة المحضة والكذب البحت درجات متفاوتة ، وأن من الأعمال والأقوال ، ما لا يمكن اعتباره موافقاً للحقيقة تماماً ، أو مخالفاً لها تماماً ، فلا يكون حقيقة خالصة ، ولا كذباً صريحاً .

إن رجال الدعاية يستفيدون من ذلك استفادة كبيرة ، فإنهم إذا اضطروا إلى تجنب الكذب البحت ، بعض التجنب ، خشية افتضاحه ـ يجدون وسائل كثيرة يتوسلون بها لتشويه الحقيقة بعض التشويه ، وتلوينها بألوان تلائم مقاصد الدعاية ، بوجه عام .

لنفرض أن أحد زعماء الأعداء خطب خطبة هامة ، فلا شك في أن رجال الدعاية في البلاد المعادية للزعيم المذكور لا يستطيعون أن يكتموا أخبار الخطبة كل الكتمان ، كما لا يستطيعون أن يعزوا إليه ما لم يقله أبداً ؛ غير أنهم مع ذلك يستطيعون أن يشوهوا الخطبة تشويهاً كبيراً . إنهم يلجأون إلى طريقة الإجمال

والتلخيص ، وخلال هذا التلخيص يحذفون بعض الفقرات ، ويقربون بين بعض الفقرات ، وبهذا الوجه يستطيعون أن يغيروا دلالة الخطبة تغييراً كبيراً ، دون أن يضيفوا إليها عبارة مكذوبة كذباً صريحاً .

وقد قال « كينغسلي مارتن » في أحد اجتماعات لجنة التعاون الفكري : « إن الصحفي الماهر يستطيع أن يكتب أعمدة كاملة لا يكون فيها « شيء » غير موافق للواقع ، ومع هذا يكون مجموع ذلك كله كذباً بحتاً » . وكل رئيس تحرير ماهر ، يستطيع أن يغيّر دلالة مقالة من المقالات تغييراً كلياً بإجراء تغيير طفيف في بعض العبارات ، وبدَسّ بعض العناوين البسيطة فوق الأقسام المختلفة منها .

فيجب علينا أن نعرف حق المعرفة أن دوائر الدعاية في جميع البلاد المتحاربة لا تزال تتفنن في هذه الأساليب المختلفة تفنناً كبيراً ، وتتقن صناعة هذه الأسلحة المعنوية إتقاناً خارقاً . . .

ومن ثمة ، يترتب على المثقفين الذين يودون الاطلاع على حقائق الأمور أن لا ينخدعوا بظواهر الأقوال ، ولا يعتمدوا على كل ما يقرأونه ويسمعونه ، بل عليهم أن يتلقوا أخبار الاذاعات بفكرة انتقادية دقيقة تساعد على كشف الحقائق ، بالرغم من المساعي التي يبذلها رجال الدعاية في سبيل سترها عن الأبصار .

اختلاف الآراء
باختلاف وجهات النظر

- ١ -

إن أهم المسائل الفلسفية التي تأمّل فيها واختلف عليها المفكرون منذ القرون الأولى هي : مسألة الحقيقة . وبتعبير آخر : مسألة المعرفة .

ما هي الحقيقة ؟ وكيف نستطيع أن نتوصل إلى معرفتها ؟ ما هي قيمة المعارف البشرية ، من وجهة مطابقتها للحقائق الكونية ؟ على ماذا نستند في أحكامنا العقلية ؟ وإلى أية درجة يحق لنا أن نعتمد على هذه الأحكام ، وأن نقطع بصحتها ؟

هذه المسائل صارت مداراً لأبحاث ومناقشات كثيرة ، ومنبعاً لآراء ونظريات متنوعة . ونستطيع أن نقول : إن أهم الفروق التي تميز « المذاهب الفلسفية » المختلفة بعضها عن بعض ، نشأت ، في حقيقة الأمر ، من اختلاف الأجوبة التي أعطيت على هذه المسائل الخطيرة .

فقد ظهر مذهب فلسفي شكّ أصحابه في قدرة العقل البشري شكاً كلياً ؛ فقالوا بوجوب الارتياب بجميع الأحكام العقلية ، وبضرورة الشك في كل الأمور . . كما ظهر مذهب فلسفي يعاكس ذلك معاكسة تامة . فقد اعتمد أصحاب هذا المذهب على العقل اعتماداً مطلقاً ، إذ قالوا : « إن العقل البشري جزء من العقل الخالق . فالتفكر إنما هو بمثابة « تذكر الخلقة واعادة الخلق » . وادعوا « ان كل ما هو مفكور ذهناً موجود فعلاً » . . وظهر مذهب فلسفي آخر ، قال أصحابه : « إن العقل ليس واسطة لمعرفة الحقيقة ، بل هو آلة للعمل » . كما زعموا « إن الحقيقة ليست المطابقة للواقع ، بل هي المساعدة على العمل » . . .

إن هذه المسائل وأمثالها كانت - بادىء الأمر - موضوع مناقشات فلسفية بحتة .

غير أنها أخذت ـ أخيراً ـ اتجاهاً علمياً ، وصارت تستنير بابحاث علم النفس وعلم الاجتماع أيضاً .

وقد لاحظ علماء النفس : إن للعواطف منطقاً خاصاً ، يختلف عن « منطق العقل » اختلافاً جوهرياً . كما لاحظ علماء الاجتماع ، أن « قوانين المنطق » التي تسير محاكماتنا وتسيطر عليها ، الآن ، لم تكن من الأمور التي خضعت لها أذهان جميع الأقوام في جميع الأزمان .

وقد لاحظ المفكرون ـ من جهة أخرى ـ أن الأحكام التي تُصدرها عقولنا ، تنقسم إلى نوعين أساسيين : النوع الأول منها يتناول خصائص الأشياء وأوصاف الحادثات نفسها ؛ وأما النوع الثاني منها ، فيحوم حول « القِيَم » التي نُضفيها نحن على تلك الأشياء والحادثات ، من « الحسن والقبح » أو « الخير والشر . . » فالنوع الأول يعبِّر عما نعرفه عن شؤون الكون وحقائق الأشياء . وأما النوع الثاني ، فيعبر عما نشعر به أمام تلك الأشياء والحادثات ، من استحسان أو استهجان . .

ولا حاجة إلى القول : إن وجوه الخطأ والصواب في النوع الأول من الأحكام تتعين وتتبين بالمحاكمات العقلية والمناقشات المنطقية ؛ غير أن النوع الثاني منها لا يخضع لأمثال هذه المحاكمات والمناقشات .

يتبين من هذه التفاصيل : إن العوامل التي تؤثر في العقول وتوجه المحاكمات كثيرة ومتنوعة . ولهذا السبب ، نجد أن « المحاكمات العقلية » التي تحوم حول مختلف الأشياء والحادثات تتأثر تأثراً كبيراً « بالاطلاعات اللاحقة والمعلومات السابقة » ، التي تتعلق بتلك الأشياء والحادثات من جهة ، و « بالعواطف الفردية والنزعات الاجتماعية » التي تتصل بها من جهة أخرى. و « الأحكام العقلية » التي تصدر ـ بناء على هذه المحاكمات ـ عن الأشياء والحادثات تختلف اختلافاً كبيراً ، باختلاف هذه العوامل المختلفة الفكرية والعاطفية .

ولذلك ، كثيراً ما نشاهد أن الواقعة الواحدة تُوْجِدُ في أذهان الأشخاص المختلفين ونفوسهم آراءً وانطباعات متخالفة ؛ كما أن القضايا المتماثلة ، قد تُلهم الشخص الواحد ـ في ظروف متخالفة ـ آراءً وانطباعاتٍ متباينة . .

ـ ٢ ـ

اما أن القضية الواحدة قد تثير في نفوس الأشخاص المختلفين وأذهانهم انطباعات مختلفة ، فإن كل واحد منا يستطيع أن يجد في ملاحظاته اليومية ، أمثلة

كثيرة على ذلك . غير أني أود أن أذكر لكم مثالاً واقعياً واحداً ، أعتقد أنه من أبرز وأبلغ الأمثلة على هذه الحقيقة :

بين يديّ الآن قصيدتان قويتان متخالفتان ، لشاعرين كبيرين معاصرين ، عن واقعة واحدة ، وقعت في عاصمة الدولة العثمانية ، في أواخر عهد السلطان عبد الحميد .

كان ذلك سنة ١٩٠٥ ، لقد ارتاع الناس بعد وقت الظهر بقليل ، بدويّ انفلاق هائل ، هَزّ جميع أرجاء المدينة هزاً عنيفاً . لقد حدث هذا الانفلاق على مقربة من موكب السلطان ، بعد انتهاء صلاة الجمعة ، وأودى بحياة مئات من الناس ، ولكنه لم يُصب السلطان عبدالحميد نفسه بأي أذى . .

من المعلوم أن السلطان المشار إليه كان من صناديد الملوك المستبدين ، وكان يخاف على حياته خوفاً مَرَضياً ، فيتوقع في كل حين حصول اعتداء عليه من قبل أحد « الفدائيين » . فكان يتخذ لذلك شتى التدابير لصيانة نفسه من سهام « الاعتداء والاغتيال » . وكان يغالي في هذه التدابير مغالاة شديدة ، يوصلها أحياناً إلى درجة « المانيا » والجنون . .

إنه لم يستقر في أحد القصور التي شيدها اسلافه ، نظراً لقربها من بيوت الناس . فابتنى لنفسه قصراً جديداً على أحد التلال المنعزلة عن الأحياء ؛ وأحاط الطرق المؤدية إلى التل المذكور ، بقصور خاصة بـ « أمنائه المخلصين » ، ومساكن خاصة بـ « صنائعه المجرّبين » ، وأبعد بذلك عن نفسه وعن قصره جميع احتمالات « الاعتداء والاغتيال » . .

ولكنه كان « أمير المؤمنين » و « خليفة المسلمين » ، علاوةً على كونه « سلطان العثمانيين » . ولذلك كان يضطر إلى الخروج من قصره ـ أيام الجمعة ـ لأداء فريضة الصلاة جماعة ، في أحد الجوامع الكبيرة . وكان يصبح ـ من جراء ذلك ـ معرضاً لخطر « الاعتداء والاغتيال » مرة في الأسبوع ، خلال ذهابه إلى الجامع وإيابه منه .

فرأى السلطان عبدالحميد ، أن يزيل هذا « الخطر » أيضاً من طريق « حياته الغالية » بأسلوب حاسم حكيم : فشيد جامعاً جديداً ، على التل الذي يقوم عليه قصره الجديد ، فصار بذلك يستطيع الذهاب إلى الجامع والعودة منه ، دون أن يضطر إلى المرور بين المساكن والحارات ، ودون أن يُعرِّض نفسه إلى خطر « الاعتداء والاغتيال » الذي كان يتوقعه على الدوام . .

إنه كان يعتزّ بلقب « الخلافة » أكثر من اعتزازه بعرش « السلطنة »،. فكان

يذهب إلى الجامع المذكور ويعود منه ـ أيام الجمع والأعياد ـ بموكب يتناهى في الفخامة والجلال . ولكنه ـ بقدر ما كان يخاف من الشعب خلال هذه الاحتفالات كان يحرص على توفير وسائل « التفرج عليها » لسفراء الدول الذين يقيمون في عاصمة الخلافة ولكبار الأجانب الذين يؤمّونها من حين إلى حين ، ليظهر « أبهة السلطنة ، وجلال الخلافة » بأروع مظاهرها .

ولهذا السبب ، شيد قصراً خاصاً يشرف على « ممر الموكب » ـ بين القصر والجامع ـ أسماه « قصر التشريفات » وخصصه لجلوس الأجانب ، الذين يسمح لهم « بالتشرف » بمشاهدة هذه الاحتفالات الرائعة ، التي كانت تعرف باسم « مراسم السلاملك العالية »(٣) .

وكان «الانفلاق الهائل » الذي ذكرته آنفاً ، قد حدث خلال أحد هذه الاحتفالات ، بناء على « الخطة » التي أحكم وضعها أحد الفوضويين البلجيكيين ، بغية القضاء على حياة السلطان عبدالحميد . كان الرجل قد استطاع الحصول على بطاقة تسمح له « بالتفرج » من قصر التشريفات . وكان قد حضر الاحتفالات عدة مرات ، ولاحظ خلالها نظام سير الموكب الملكي بكل انتباه واهتمام . وقد علم أن « بوق السلام » يدوي في الآذان حالما يخرج السلطان من الجامع ويركب العربة الملكية . وقد حسب المدة التي تمضي بين انتشار صوت البوق وبين مرور العربة من مفرق الشارع الذي تنتظر فيه عربات الزوار والمتفرجين ، وتأكد من أنها ثابتة ، لا تتغير . فدبّر الأمر على هذا الأساس : استحضر عربة خاصة ، حوّل « كرسي جلوس السائق » فيها إلى « ماكينة جهنمية » ـ حسب تعبير ذلك الزمان ـ مؤلفة من مخزن مملوء بمواد متفرقعة شديدة الانفجار ، ومن آلة توقيت دقيقة تضمن انفجار تلك المواد بعد مرور مدة معينة من تحريك زرها الخاص .

وفي اليوم الذي اختاره لتنفيذ خطته هذه ، أوصل العربة إلى مقربة من طريق مرور الموكب ، ثم انتظر هناك صوت البوق الذي يعلن خروج السلطان من الجامع وركوبه العربة ؛ وحالما سمع الصوت ، حرّك الزرّ ، وتباعد عن ذلك المكان . . .

وقد حصل الانفجار في الوقت المعين تماماً ، وكان انفجاراً هائلاً حطّم وهشّم عشرات من العربات والخيول ، وبعثر حطامها واشلاءها إلى مسافات كبيرة ، وأدى

---

(٣) إن منظر الموكب السلطاني ، الذي يمشي فيه عشرات من المشيرين والباشوات ، ومئات من كبار الضباط ـ بملابسهم المزركشة ، وسيوفهم المذهبة ، وأوسمتهم المرصعة ـ من بين صفوف عديدة من مختلف أصناف « الجنود الخاصة المتزيين بأزياء متنوعة الأشكال والألوان . . . كان من أهم ما يتوق إلى مشاهدته « كبار الأجانب » الذين يزورون « مقر السلطنة العثمانية والخلافة الاسلامية » في ذلك الزمان .

إلى جرح بضع مئات من الناس . . وموتهم . ولكن حدث حادث صغير ، كان كافياً لصيانة السلطان عبدالحميد من تأثيرات هذا الانفجار الهدام : فإنه بعد أن خرج من الجامع وهمّ بركوب العربة ـ وبعد أن دوّى في الجو صوت « بوق السلام الملكي » الرنان ـ تذكر السلطان عبدالحميد « قضية » ، رأى أن يكلم شيخ الاسلام فيها ، فتأخر لذلك عن الركوب مدة من الزمن . وهذا التأخر الطارىء صار سبباً لنجاة السلطان من حبال هذه المكيدة المحكمة ، لأن انفجار الماكينة الجهنمية ، قد حصل ـ لهذا السبب ـ قبل أن يصل الموكب إلى منطقة تأثيرها الفعال .

إن أخبار هذه الواقعة ، قوبلت بدهشة عظيمة في كل أنحاء الدولة العثمانية ـ بل في جميع بلاد العالم . . وعندئذ نظم الشاعر العربي الكبير أحمد شوقي ، قصيدة رنانة هنأ بها السلطان على نجاته من شرور هذه المكيدة . . .

يعتبر شوقي ـ في قصيدته هذه ـ العمل الذي قام به في ذلك اليوم « عصابة شر » من « البغاة » ، جنايةً ما بعدها جناية ، ويبتهج لنجاة الخليفة منها ابتهاجاً لا يفوقه ابتهاج . ويدّعي بأن العالم بأسره سُرّ بذلك سروراً عظيماً ، وتقدم إلى الله سبحانه وتعالى بالشكر والحمد ، حتى أن « البيت الحرام » نفسه شكر ربه لذلك ، و « جبل عرفات » نفسه اشترك في هذا الشكر ، كما أن جميع المساجد والجوامع انبرت « تستغفر الله » من هذه الجناية الفظيعة ، وتحمده على فشلها ، حتى أن أرواح الأموات ـ الذين ذهبوا ضحية لهذه الجناية ـ أيضاً صارت تدعو بطول العمر لأمير المؤمنين . وأما نجاته من « شرور هذه المكيدة » فلا يشك شوقي ـ في قصيدته هذه ـ بأنها كانت من جراء حفظ الملائكة الذين كانوا له « من عند الاله حماة » . . .

القصيدة معنونة بعنوان النجاة ، وهي طويلة ، تقع في سبعة وخمسين بيتاً ، ولست أرى داعياً إلى إثباتها كلها في هذا المقام . فسأكتفي بذكر بعض الأقسام منها ، لإعطاء فكرة عامة عنها .

إليك أولاً ، هذه الأبيات من مطلع القصيدة :

نجاة

هنيئاً أمير المؤمنين فإنما ... نجاتك للدين الحنيف نجاةُ
هنيئاً لطه والكتاب ، وأمة ... بقاؤك إبقاءٌ لها وحياة
أخذت على الأقدار عهداً موثقاً ... فلست الذي ترقى إليه أذاة
ومن يك في برد النبي وثوبه ... تجزه إلى أعدائه الرميات
يكاد يسير البيت شكراً لربه ... إليك ، ويسعى هاتفاً عرفات

وتستوهب الصفح المساجد خُشّعاً | وتبسط راح التوبة الجمعات
وتستغفر الأرض الخصيب وما جنت | ولكن سقاها قاتلون جناة
وتُثني من الجرحى عليك جراحهم | وتأتي من القتلى لك الدعوات
ضحكت من الأهوال ثم بكيتهم | بدمع جرت في اثره الرحمات
تُثاب بغاليه وتجزى بطهره | إلى البعث اشلاء لهم ورفات
وما كنت تحييهم فكِلهم لربهم ، | فما مات قوم في سبيلك ماتوا . . .

ثم دونك هذه الأبيات من وسط القصيدة :

إذا زلزلت من حولك الأرض رادها | وقارك حتى تسكن الجنبات
وإن خرجت نار ، فكانت جهنماً | تغذى بأجساد الورى وتُقات
وترتج منها لجة ومدينة | وتصلي نواحٍ حرّها وجهات
تمشيت في برد الخليل فخضتها | سلاماً وبرداً حولك الغمرات
وسرت ، وملء الأرض حولك ادرع | ودرعك قلب خاشع وصلاة
ضحوكا وأصناف المنايا عوابس | وقوراً وأنواع الحتوف طغاة
يحوطك ـ إن خان الحماة انتباهُهم ـ | ملائك من عند الاله حماة

وأخيراً اسمع هذه الأبيات التي تنتهي بها القصيدة :

نجت أمة لما نجوت ، وبوركت | بلاد ، وطالت للسرير حياة
وصين جلال الملك ، وامتد عزه | ودام عليه الحسن والحسنات
وأمّن في شرق البلاد وغربها | يتامى على أقواتهم وعفاة
سلامي عن هذا المقام مقصر | عليك سلام الله والبركات .

(من ديوانه « الشوقيات »)

فأنت ترى من هذه الأبيات كلها ، أن أحمد شوقي عبر عن ابتهاجه بنجاة أمير المؤمنين تعبيراً حماسياً جداً ؛ واسترسل في مدح السلطان عبدالحميد استرسالاً أوصله إلى أقصى درجات المغالاة . . .

*

ومن الغريب أنه عندما كان شوقي الكبير ينظم في مصر هذه القصيدة الطنانة ، ويعلن بها ابتهاجه وابتهاج العالم بأسره بنجاة أمير المؤمنين ، على هذا المنوال . . . كان شاعر تركي كبير في الآستانة ، هو توفيق فكرت الشهير ، ينكمش على نفسه ، وينظم قطعة شعرية رقيقة ، تندب « سوء حظ الأمة بنجاة السلطان عبدالحميد من هذه المكيدة المحكمة . . . » .

هذه القطعة الشعرية تحمل عنوان « لحظة تأخر واحدة » ، وهي قطعة شعرية قصيرة ، تتألف من خمسة عشر بيتاً فقط ، ولكنها تدل على تفكير مرير ، وحزن عميق ، وألم دفين . . . وهذه ترجمتها ترجمة تكاد تكون حرفية ، لكثرة الكلمات العربية المستعملة فيها :

لحظة تأخر واحدة . . .

ضربة ، ودخان . . . وتطايرت إلى أجواز الفضاء أشلاء من الأرجل والرؤوس والدماء والعظام . . . كأن « محفل أفراح » بكامله ـ أو « معشراً من المتفرجين » بأسره ـ قد نُتف نتفاً فنثر نثراً ، بأظافر خشنة ، ليد قهر جبارة . . .

أيتها الضربة المبجلة ، وأيها الدخان المتقم ! . . . ما أنتِ ، ومن أنتِ ؟ . . . ما هو ، ومن هو السبب لهذه الصولة ، والدافع لها ؟

وراءك (ألف أنظار متجسسة) . . . وأنتِ تلوحين لها كَيَدِ غيب متخفية ، تنشر الخلاص والنجاة . . .

لدوِيّك ثورة غيظ راعدة ، تثير شعور الحق والخلاص في كل مكان . . .

ومن صدمتك ، ترتعد أوصال الاستبداد القاهرة . . .

ومن اقترابك ، ترتجف أغرّ تيجان العظمة . .

إن الدهشة التي تلقينها في النفوس ، تهزّ رقاب القرون ، فتوقظ الشعوب من أعمق درجات النوم والسبات . . .

أيها الصياد الجليل الشأن ! . . . إنك لم تنصب شراكك عبثاً . . رميت ، ولكنك ـ واأسفاه ، بل وألف أسفاه . . . ـ لم تصب المرمى ! . . .

لو توقف ، هنيهة واحدة ، الفلك الذي لا يعرف الاستقرار . . أو لو لم يقف هو ـ صاحب ذلك التاج المشؤوم . . . لكان هذا العمل الذي أمسى الآن شبيهاً بجناية دامية ، قد صار خيراً لم يسبق له مثيل ، منذ قرون وقرون . . .

غير أن « الصدفة » ـ واأسفاه ! ـ الصدفة التي تلازم الأقوياء وتخاصم الضعفاء على الدوام . . . انبرت بغتة لمحو هذا التدبير الخارق . . . فأطفأت ـ في نفثة واحدة ـ هذا الأمل البارق . . .

فقد نقش الحظ الأعمى ، ساخراً ومتهكماً ، ديباجة غرور جديدة ، على صفحات تاريخ الظلم والاعتساف . . .

لقد نجا . . . فحق له أن ينتقم الآن . . .

ولكن ، على التاريخ الذي يستطيب السفالات ، أن لا ينسى هذه الحقيقة :

إن اللئيم الذي يلهو اليوم بالعبث بحياة أمة بأسرها . . . مدين بكل ملذاته هذه . . . إلى لحظة تأخر - ليس إلا . . .

(من ديوان أشعار توفيق فكرت : الرباب الكسير)

نرى من هذه القطعة الشعرية الرائعة ، أن هذا « الشاعر الاستانبولي » نظر إلى الواقعة نظرات تختلف عن نظرات « الشاعر المصري » اختلافاً تاماً : إنه أسف كل الأسف على « لحظة التأخر » التي أدت إلى نجاة السلطان من الموت ، واعتبر ذلك بمثابة صفحة جديدة أضيفت إلى صفحات « تاريخ الظلم والاعتساف » على يد « الحظ الأعمى » .

قارن بين هاتين القصيدتين المكتوبتين في وقت واحد ، عن واقعة واحدة . لاحظ موجة السرور والابتهاج التي تنبعث من القصيدة الأولى ، وجو الحزن والألم الذي يغمر جميع أقسام القصيدة الثانية . وازن بين الأخيلة التي تتراءى للشاعر الأول وبين التي تتراءى للشاعر الثاني ، أمام هذه الواقعة . . . ترَ أن التباين في هذا المضمار قد وصل إلى أقصى حدود الامكان .

أما أسباب هذا التباين الشديد ، فهي تظهر للعيان - بوضوح تام - عندما نلاحظ « وجهات نظر » كل واحد من هذين الشاعرين ونبحث عن نزعاتهما الفكرية والعاطفية :

كان شوقي يعيش في مصر ، وينظر إلى السلطان عبدالحميد ، كـ « خليفة للمسلمين وأمير للمؤمنين » بكل معنى الكلمة . وكان لا يعرف عنه وعن أعماله شيئاً غير ما كان يشاهده بنفسه ، عندما يزور « قصر الخلافة » بمعية « فخامة الخديو » . وكان يرى تلك المدينة العظيمة من خلال « الجو الأريستوقراطي » الذي يغمر القصور الكثيرة ، المنشأة على شواطىء البوسفور الجميلة ، من خليج أميرجان ، حيث قصر الخديو ، إلى تل يلديز حيث قصر السلطان . . . وكان ينظر إلى الأشياء وإلى الناس بذلك « المنظار الخاص » الذي يُضفي على كل شيء ألواناً زاهية ، ولا يظهر شيئاً من فساد الحكم ، وشقاء الشعب ، وآلام المثقفين ومظالم الاستبداد . . فكان من الطبيعي أن يبتهج شوقي بنجاة السلطان ، وأن يعتبر ذلك بمثابة نعمة من نعم الله ، وأن يسارع لذلك إلى تهنئة « أمير المؤمنين » بهذه النجاة المبينة . . . تهنئة مشبوبة بحرارة الايمان . . .

وأما توفيق فكـرت ، فكان يعيش في عـاصمة الـدولة نفسهـا ، بين جماعة من الأحرار التواقين إلى الاصلاح . وكان يعرف كـل ما يختفي وراء هـذه المظاهـر الفخمة من حقائق فجيعة وما يستتر تحت تلك الألقاب الضخمة من مآسٍ فظيعـة . . . وكان من الذين يشعرون في أعماق أنفسهم بثورة مكبوتة على استبداد عبدالحميد القاسي ، ومن الذين يلاحظون أن ذلك الاستبداد كان قد أخذ يطغى طغياناً جنونياً ، فيتسلط على العقول ويفسد الأخلاق ، بشتى الطرق والأساليب . وكـان قد عبّر عن شعوره هذا أصدق التعبير وأعمقه ، في قصيدة طويلة ، عنـونها بعنوان « الضبـاب » ، لقّب فيها عاصمة السلطنة والخلافة ، بلقب « فـاجرة الـدهر » . . . فكـان من الطبيعي أن يتألم هذا الشاعر الحساس ألماً شديداً ، عنـدما يسمـع تفاصيـل الواقعـة ، ويطلع على نجاة السلطان منها من جراء « لحظة تأخر واحدة » . وكان من الـطبيعي أن يعتبر هـذه النجاة « من مظالم المقادير » ، وأن يكتب ما كتبه في هذا الصدد بتفكير مرير . . .

ولا حـاجة إلى القـول ، أن القصيـدة التي كتبهـا شـوقي ، رُفعت في حينهـا إلى « السـدة السنية » ـ حسب تعبيـر ذلك الـزمان ـ ونـالت من لدن السلطان كـل تقـديـر واستحسان ، غير أن القطعة التي كتبها توفيق فكرت أحيطت بالسرية والكتمان ، فلم تنتشر إلاّ بين طلاب الحرية الذين كانوا يتنـاقلونها بحذر كبـير وحيطة عـظيمة ، إلى أن حدث الانقلاب الذي قضى على عهد الاستبداد الحميدي ، فانبرت عندئـذ الألسن ، إلى إنشـادها وتكـرارها دون خـوف ولا وجـل . ومن المعلوم أن المـدة التي مضت بـين حدوث الانفلاق المذكور وبين اعلان الدستور وانقلاب الأمور ، كانت أقل من ثـلاث سنوات . . .

ـ ٣ ـ

بعـد أن بينت ـ بهذا المثـال البارز الـذي سردتـه بتفصيـلات وافيـة ـ « كيف أن انطباعات الأشخاص المختلفـين عن الواقعـة الواحـدة قد تتبـاين تباينـاً كبيراً في بعض الأحـوال » ، عليّ أن أنتقـل إلى الشق الثاني من الأمـر ، فأبـين ـ بمثـال بـارز أيضـاً . « كيف أن انطباع الشخص الواحد عن القضـايا المتمـاثلة ، قد يختلف اختـلافاً كبيـراً باختلاف ظروفه الخاصة » .

إن هذا الاختلاف يحدث ـ بوجه خاص ـ عندما تندَسّ بين عنـاصر المحـاكمات العقلية وحدودها ، بدون شعور الشخص وانتباهه ، بعض العوامل العاطفية والدوافع النفعية ، فتخرج تلك المحاكمات عن جادّة المنطق السليم . . .

ولقد وقعت على أبلغ الأمثلة لذلك ، في احدى « الكلمات » التي كتبها المفكر الفرنسي المشهور آلين (Alain) .

« آلين » هذا اسم مستعار ، اختاره الكاتب لنفسه ـ لنشر « كلماته الحكمية » ـ عوضاً عن اسمه الأصلي اميل أوجيه (Emile Augier) .

وقد قرأت لهذا الكاتب المفكر في إحدى المجلات التربوية كلمات حكيمة عديدة ، تدل على روح نقد لاذعة ، ورغبة اصلاح عميقة . فأردت أن أتوسع في معرفة آرائه العامة ، فجلبت الكتب التي جمعت كلماته المختلفة . وكان بينها كتاب يحتوي على كلمات في « السياسة والأخلاق والاجتماع » . ولقد وقعت في هذا الكتاب على كلمة كان قد كتبها ونشرها عند استيلاء الطليان على طرابلس الغرب ، فبادرت إلى مطالعتها ـ بطبيعة الحال ـ بكل شغف واهتمام . .

كان الرجل يستهجن هذا الاستيلاء كل الاستهجان ، ويضم صوته إلى صوت الخطيب الشهير جوريس (Jaures) الذي كان قد هاجم الطليان بمقالات نارية رائعة ؛ ثم يرد على أقوال الذين أخذوا على عاتقهم مهمة الدفاع عن الطليان ، رداً مقنعاً ، ينم عن نظرات انسانية حيادية .

وكان مما كتبه آلين في هذا الصدد ، ما مآله :

« يقولون لنا : إن الدولة الايطالية مقابل الدولة العثمانية ، إنما هي بمثابة الحضارة والمدنية مقابل البربرية والهمجية . فيجب علينا أن نتمنى تغلب الأولى على الثانية ، لصالح الانسانية .

« إن هذا القول ، لا يخلو من الاصابة والوجاهة : فلا شك في أن ايطاليا عندما تؤسس أنظمتها وتفرض قوانينها على طرابلس الغرب ستقضي على تجارة الرقيق وعلى سائر الفظائع الافريقية السائدة في تلك البلاد . غير أنه يجدر بالمرء أن يلاحظ أنه كان في استطاعة ايطاليا أن تفعل كل ذلك دون أن تلجأ إلى الهجوم والاستيلاء . كان في استطاعتها أن تصل إلى الغاية المذكورة عن طريق مساعدة السلطات المحلية الشرعية ، دون حرب وقتال . . ولكن ايطاليا أرادت أن تظهر قوتها فسلكت سبيل العنف والحرب ، مما يدل دلالة قاطعة على أن قصدها من ذلك كله لم يكن تقرير النظام والسلام في طرابلس الغرب ، بل كان بسط سيادتها على ذلك القطر » .

وقد ختم الكاتب المفكر كلمته هذه بالعبارات التالية :

« فيحق لنا أن نقول ، أن عمل ايطاليا في هذا الهجوم والاستيلاء كان عملاً بربرياً ، لا مبرر له أبداً . ولا شك في أن هذه البربرية ستكون شائبة سوداء تلطخ تاريخ هذا القرن » . . .

عندما قرأت هذه العبارات ، قدرت الكاتب كل التقدير ، بطبيعة الحال .

وتقديري هذا تحول إلى « الاعجاب الشديد » ، عندما وصلت إلى العبارة الأخيرة التي تصرّح أن هذا الاستيلاء سيكون شائبة سوداء في جبين تاريخ القرن العشرين . . .

غير أني تذكرت ـ في الوقت نفسه ـ أن استيلاء الفرنسيين على المغرب الأقصى سبق استيلاء الطليان على طرابلس الغرب بمدة غير طويلة ، حتى أن ايطاليا لم تقدم على مهاجمة طرابلس الغرب إلا بعد أن اتفقت مع فرنسا ومع سائر الدول المستعمرة ، على أساس : إطلاق يد فرنسا في مراكش ، مقابل اطلاق يد انكلترة في مصر ، وايطاليا في طرابلس الغرب . .

وعندما تذكرت ذلك كله ، ارتسم في ذهني حالاً هذا السؤال : « ترى ، ماذا قال هذا الكاتب المفكر ، عن استيلاء فرنسا على المغرب الأقصى ؟ . . » .

ومن الغريب أنني وجدت جواب هذا السؤال ، في نفس الكتاب ، بعد الكلمة التي نقلتها آنفاً . . لأن هذا الكاتب المفكر الشهير ـ بعد ما أصدر على الطليان الحكم الحاسم السابق الذكر ـ نقل البحث والحديث إلى بلاده وقومه ، فقال : « وأما نحن الفرنسيين ، في مراكش . . فما كنا نحارب لأجل الاستيلاء ، بل لأجل بسط أجنحة السلام ، على تلك البلاد » . .

ثم أخذ يؤيد قوله هذا بهذه الملاحظات والمدّعيات : « إننا كنا نحارب هناك في سبيل دين البلاد ، وسلطات البلاد . كنا نعمل عمل الضباط ، لا عمل المحاربين . كنا نتفق مع كل المسالمين ، على جميع المقاتلين » . .

ولكن الجيوش الفرنسية كانت لا تزال تحارب في المغرب الأقصى ؛ وكانت لا تزال تستولي على أقسامه المختلفة مرحلة بعد مرحلة ! فما كان في مقدور « المفكر الشهير » أن ينكر هذه الحقائق الراهنة . غير أن حرصه الشديد على تبرئة ذمة بلاده من « التهمة » التي وجهها هو إلى ايطاليا ، حمله على اختلاق المعاذير لفرنسة ـ واختراع الفروق بين عملها وعمل ايطاليا ـ ولو عن طريق المغالطات الصارخة : « نعم ، اننا كنا نسير نحو الاستيلاء . ولكن ذلك كان بالرغم منا ، دون حماس وهياج . . إن ما كنا نرمي إليه في المغرب الأقصى ، لم يكن سلطة لنا ، بل كان نظاماً وأمناً وسلاماً لكل الناس . . إن هذا الاستيلاء ، كان مما لا يمكن تجنبه بوجه من الوجوه . وقد جرى تحت تأثير هذه الفكرة ، توصلاً إلى هذه الغاية وحدها . . إن كل ما عملناه هناك كان من الأمور الضرورية ، التي ما كان يجوز أن لا تُعمل أبداً » . . .

وبعد تسطير هذه المزاعم التي حاول الكاتب المفكر أن يخدع بها نفسه أولاً ، ثم قراءه ثانياً . . . لم يتورع عن العودة إلى ذكر ايطاليا ، وانهى كلمته بهذه العبارة :

« ولكن ذلك لا يمكن أن يقال عن ايطاليا . . . » .

وقد تكلم « آلين » عن قضية مراكش في محل آخر ، وبوسيلة أخرى أيضاً فقال : « لو كان المراكشيون عادلين فيما بينهم ، منتظمين في أعمالهم ، قادرين على الأعمال الصناعية ، متعودين دفع الضرائب ومراقبة النفقات العامة . . لكانوا أقوياء مثلنا ؛ ولما احتجنا نحن ـ عندئذ ـ إلى حمل السلاح ضدهم ؛ بل لذهبنا إلى بلادهم لنتاجر معهم ، نشتري منهم ونبيعهم ، حسب ما تقتضيه منافعنا المتقابلة . ولكن الآن ، نحن مضطرون إلى الاستيلاء على تلك البلاد ، ومدفوعون نحو هذا الاستيلاء بحكم الوقائع وسوقها . . وكل شيء يدل على أن تهدئة تلك العشائر المقاتلة ، مما لا يمكن أن يتم بوسائل أخرى . إن العمل الذي نقوم به نحن في تلك البلاد ، لم يكن عملاً حربياً ، بل كان عملاً انضباطياً . . ليس إلا » . .

لاحظ ، كيف تغيرت مقاييس الرجل ومحاكماته ، دفعة واحدة ، تغيراً غريباً ، حالما انتقلت أبحاثه وكلماته من « استيلاء إيطاليا على طرابلس الغرب » إلى « استيلاء فرنسا على المغرب الأقصى » ؟ !

أمامنا حادثتان متشابهتان تشابهاً تاماً ، تحدثان في وقتين متقاربين جداً . وكاتبنا الفرنسي المفكر يقول عن احداهما أنها « شائبة سوداء في جبين حضارة القرن العشرين » ، في حين أنه يخلع على الثانية رداء « خدمة الانسانية » ! استيلاءان واستعماران موجهان إلى قطرين عربيين . . وبينما يقول هذا الكاتب العبقري ، عن احدهما « إنه عمل بربري لا مبرر له مطلقاً » ، يقول عن الآخر « إنه عمل انساني ، يخدم الحضارة » ! .

يُقدّر هذا الكاتب الافرنسي الحقيقة الراهنة حق قدرها ، ويسلم ببربرية الاعتداء والاستيلاء ، عندما يتعلق الأمر بايطاليا ؛ ولكنه يغض البصر عنها ، ويختلق شتى المبررات لها ، عندما يتعلق الأمر بفرنسا ! . . . إن محاكماته العقلية تبقى سليمة ، فلا تخرج عن جادة المنطق والصواب ، عندما يتكلم عن قضية تتعلق ببلاد أجنبية عنه ؛ ولكن محاكماته هذه تفقد سلامتها ، فتخرج عن دائرة المنطق والصواب ، حالما تنتقل أبحاثه إلى قضية تتعلق بالبلاد التي ينتمي إليها ! . . .

ـ ٤ ـ

ولا تحسبْ أن هذه الحالة العقلية ، وهذه النزعة الفكرية ، من الأمور الشاذة التي لا يشاهد أمثالها إلا نادراً . بل ثق بأن ذلك من الأمور الاعتيادية التي تسود النفوس في كل زمان ومكان . إن العواطف تلعب دوراً هاماً في المحاكمات ، حتى عند المفكرين والعلماء ، لا سيما في القضايا التي تتصل بالسياسة الوطنية . ولا يشذ عن

هذه القاعدة إلا عدد قليل من المفكرين ، أستطيع أن أذكر على رأسهم الفيلسوف الانكليزي المشهور هربرت سبنسر (Herbert Spencer) .

إن هذا المفكر العظيم ، قد استطاع أن يتسامى - في كتاباته - عن اعتبارات « السياسة الوطنية الضيقة » ، وأن يحافظ على حياده الفكري حتى أمام قضايا « السياسة الاستعمارية » . وقد ذكر - في « مقدمة علم الاجتماع » التي نشرها - الشيء الكثير عن فظائع الاستعمار . ولم يستثن بلاده من تبعات هذه الفظائع مطلقاً . وكان مما قاله في هذه المقدمة :

« عندما نشاهد شعباً من الشعوب المحكومة يجاهد في سبيل التحرر والاستعباد ، نُعجب به إعجاباً شديداً ، ونصفق لاستقلاله تصفيقاً حاراً . غير أن ذلك الشعب ، إذا كان من الشعوب المحكومة لنا نحن ، عندئذ يثور في نفوسنا نحوه غيظ شديد عوضاً عن الاعجاب » .

« نحن نصفق لكثير من الوقائع الاستقلالية ، ومع ذلك لا نجد في المحاولات التي يقوم بها الهنود للتخلص من نيرنا شيئاً غير « الخيانة المحضة » ، كما أننا لا نعذر أبداً الجهود التي يبذلها الايرلنديون لتأسيس قومية مستقلة عنا . ونتجاهل تجاهلاً مطلقاً ، أن جميع هذه الوقائع تحدث لسبب واحد ، وتهدف إلى غاية واحدة ، فالأحكام التي نصدرها عنها يجب أن تكون متماثلة تمام التماثل » .

« نحن نغتاظ من أعمال الظلم والاعتساف ، عندما تصدر عن غيرنا ولكننا نستحسنها ، ونصفق لها ، إذا ما صدرت عن موظفينا . . . نحن ننظر إلى الأعمال المتماثلة بنظر الخير أو الشر ، حسب كونها موجهة أو غير موجهة إلينا . . » .

ولا يكتفي هربرت سبنسر بسرد هذه النزعات النفسية سرداً عاماً ، بل يوضحها ببعض الأمثلة أيضاً : « كلنا نذكر موجة الاستهجان والغيظ التي غمرت النفوس في جميع أنحاء انكلترة ، عندما انتشرت المظالم التي ارتكبها الفرنسيون في الجزائر ، لإخضاع العرب الذين لم يستسلموا لهم ، بل حاولوا مقاومتهم . لا شك في أن تلك المظالم كانت فظيعة جداً ، ولا شك في أن الغيظ الذي تأجج في نفوسنا من جراء ذلك كان محقاً تماماً . ولكنه ، يجب علينا أن نلاحظ - في الوقت نفسه - بأننا نحن أيضاً ارتكبنا من المظالم ما لا يقل فظاعة عن ذلك في مستعمراتنا المختلفة ، ولا سيما في الهند . . . » .

يذكر هربرت سبنسر كثيراً من المظالم التي ارتكبها الأوروبيون في امريكا ، ويصرح بأن الانكليز اشتركوا أيضاً في تلك المظالم ، ثم يرد على من يزعم بأن « ذلك قد حدث في زمان مضى وانقضى » بقوله : « إنني أستطيع أن أذكر لهم كثيراً من المظالم المخجلة التي لا تزال ترتكب في مستعمراتنا » ، ويذكر فعلاً أمثلة عديدة عليها . . .

غير أن أهم الآراء التي أبداها هربرت سبنسر في هذا المضمار ، تتجلى بأجلى

أشكالها في العبارات التالية : « إننا نستطيع أن نميز الحق من الباطل بسهولة في الخلافات التي تحدث بين الأمم ، عندما يكون الطرفان غريبين عنا . ولكننا نفقد القدرة على التمييز ، ونصبح ـ كالعميان ـ عاجزين عن رؤية أنوار الحقيقة ، إذا ما كنا من ذوي العلاقة في القضية ، أو من العاملين والمؤثرين فيها . . . » .

*

هذا ، ويجب أن لا ننسى أن أمثال هذا المفكر المحايد الحر ، قليلون وقليلون جداً . وأما الكثرة الساحقة من الكتّاب والمفكرين فإنهم يزنون الأمور بميزانين عقليين متخالفين ، ويقدرون الأعمال بمقياسين أخلاقيين متباينين . . . ويخصصون أحد هذين الميزانين وهذين المقياسين للأمور المتعلقة ببلادهم وبمواطنيهم ، ويستعملون الميزان الآخر ، والمقياس الآخر لدرس سائر القضايا ، وتقدير سائر الأعمال . . .

ولهذا السبب ، يجب علينا أن لا نخدع بكل ما يكتبه الأوروبيون عن القضايا التي تتعلق بالحوادث السياسية وتتصل بالأمور القومية ، حتى ولو كانوا من العلماء والمفكرين . ويجب علينا ـ بوجه خاص ـ أن لا نعتمد كثيراً على ما يكتبه « أحد الطرفين » في الأمور التاريخية والسياسية ، بل يجب علينا أن نتوسع ونتعمق في درس أمثال هذه الأمور ، وأن نقابل ونوازن ما يكتبه « أحد الطرفين » من ذوي العلاقة ، في كل واقعة وكل قضية ، بما يكتبه « الطرف الآخر » من جهة ، وبما كتبه غير ذوي العلاقة ، من جهة أخرى . فإننا بهذه الصورة ، وبهذه الصورة وحدها ، نستطيع أن نتوصل الى معرفة الحقيقة ، في القضايا السياسية والمسائل التاريخية . .

جامعة الدول العربية

إن جامعة الدول العربية التي تشكلت وتأسست بصورة رسمية ، قبل عامين ، وليدة « احتياج حقيقي » ، أخذ يشعر به ويعمل لمعالجته رجال الفكر والسياسة ، في مختلف الأقطار العربية ، منذ أعوام عديدة .

في الواقع ، أن كل واحدة من الدول العربية التي وقّعت على ميثاق هذه الجامعة كانت قد بدأت تتكون تحت شروط وظروف خاصة بها ، تختلف اختلافاً كبيراً عن الشروط والظروف التي أحاطت بتكوين غيرها . وذلك من جراء تنوع وتباين سياسات الدول الاستعمارية التي كانت قد بسطت حكمها أو نفوذها على كل قطر من الأقطار العربية على حده .

ولهذا السبب أخذت الأمور تسير في كل واحدة من الدول العربية في اتجاه خاص ؛ فصارت هذه الدول تتباعد بعضها عن بعض من حيث التشكيلات الادارية والقضائية ، والاتجاهات التعليمية والتثقيفية ، والتنظيمات الاقتصادية والمالية . .

والواقع أن أهالي هذه الأقطار لم يستسلموا إلى الحكم الأجنبي استسلاماً تاماً ، بل قاموا يثورون عليه ، ويسعون للتخلص منه ، بوسائل مختلفة وفي فترات متفاوتة . غير أن هذه الحركات التحررية أيضاً أخذت ـ في بادىء الأمر ـ في كل قطر من الأقطار العربية ، شكلاً خاصاً بذلك القطر ، يختلف عن أساليب النضال التي سادت غيره من الأقطار ، بطبيعة الحال .

ولهذا السبب ، صار « التباعد » الذي ذكرناه آنفاً يزداد ويشتد سنة بعد سنة ، ويؤدي إلى تباين عظيم في الأوضاع الحكومية وفي جميع الشؤون العامة التي ترتبط

ارتباطاً وثيقاً بتلك الأوضاع .

ولكن هذا التباعد كان قد نتج من تأثير العوامل الخارجية المسيطرة على مختلف الأقطار العربية ، كما ذكرنا ذلك آنفا ، وكان مخالفاً للروابط المعنوية التي تربط هذه الأقطار بعضها ببعض ، بأواصر متينة من « القومية الطبيعية » الكامنة في وحدة اللغة والتاريخ .

فكان من الطبيعي أن تعمل هذه القوى المعنوية أيضاً عملها الفعال في هذا المضمار ، وأن تُحدث من الحركات الشعبية والتيارات القومية ، ما يعاكس العوامل الخارجية المذكورة ، وما يولد ، بجانب تيار « التباعد الحكومي الرسمي » ، تيار « تقارب شعبي قومي » ، يزداد قوة واتساعاً على مرّ السنين .

لقد بدأت هذه الحركات التقاربية ، مستقلة عن أعمال الحكومات ولكنها أخذت بعدئذ تنال منها ـ شيئاً فشيئاً ـ التحبيذ ، فالتأييد فالتشجيع ، فالمساعدة ، وذلك حسب تقدّم الحكومات المذكورة في سبيل الاستقلال الاداري والسياسي ، وتشبعها بالروح القومية والوطنية ؛ وصار نطاق هذا التأييد الرسمي وهذه المساعدة الحكومية ، يتوسع تدريجياً ، وينتقل من دولة إلى دولة ، حتى شمل جميع الدول العربية بلا استثناء .

إن قوافل الطلاب والمدرسين التي أخذت تسير بين مختلف الأقطار العربية ، والمؤتمرات والمهرجانات التي صارت تُعقد وتقام في عواصم تلك الأقطار ، كانت من آثار هذه الحركات القومية من جهة ، ومن عواملها الفعالة من جهة أخرى .

إن محنة فلسطين قد عملت عملاً هاماً في هذا السبيل ، لأنها أعطت برهاناً ملموساً على وحدة مقررات البلاد العربية ، على الرغم من تعدد دولها . والجهود التي استهدفت معالجة هذه المحنة أيضاً بدأت تتجلى في بادىء الأمر على شكل حركات شعبية قومية ، بواسطة هيئات وجمعيات مجردة عن كل صبغة رسمية ومحرومة من كل مساعدة حكومية . غير أن هذه الأحوال والأوضاع تبدلت بعد ذلك تدريجياً ، فأخذت الحكومات العربية المختلفة تساعد هذه الجهود والحركات شيئاً فشيئاً ، أولاً بصورة سرية ثم بصورة علنية ، إلى أن صارت تتبارى في اظهار العطف عليها والعمل لمساعدتها بصورة فعلية .

وأخيراً ، فإن وقائع الحرب العالمية الأخيرة ، وما صاحبها من المحن وما أعقبها من الأحداث . . في مختلف البلاد العربية . . أكثرت من الدلائل المادية والبراهين القطعية على « وحدة المصالح والمقدرات » التي تربط هذه البلاد بعضها ببعض .

وساعدت بذلك على إشاعة فكرة التضامن ، وتقوية نزعة الاتحاد بين جميع الدول العربية .

وقد تهيأت بكل ذلك ، جميع الأسباب الداعية إلى تنظيم هذه النزعات والحركات القومية التي انتشرت على هذا المنوال ، أولاً في البيئات الشعبية ، ثم في المحافل الحكومية في جميع البلاد العربية .

*

إن جامعة الدول العربية ، ما هي إلا « الجهاز الرسمي » الذي وُجد لتحقيق هذا التنظيم القومي العام . . فهي بهذا الاعتبار ، بمثابة « منظمة طبيعية » تكونت بتأثير عوامل قومية غزيرة المنافع ، عميقة الجذور .

وبتعبير آخر أنها « عضوية حية نامية » تمخضت منها مشيمة العالم العربي تمخضاً طويلاً . . وقد ولدت هذه العضوية ولادة طبيعية ، زودتها بجميع شروط النمو والحياة .

*

إنني وصفت هذه المنظمة بـ « الطبيعية » وشبهتها بـ « العضويات الحية » . وقد فعلت ذلك ، تمييزاً لها عن « المنظمات الاصطناعية » التي توجدها « الاتفاقات والتدبيرات السياسية » مستفيدةً من بعض العوامل الطارئة ، لتحقيق بعض الأغراض العارضة . إن أمثال هذه المنظمات تعيش ما عاشت تلك العوامل الطارئة وتزول بزوالها ، دون أن تخلف آثاراً حية .

إن جامعة الدول العربية لا تشبه تلك المنظمات بوجه من الوجوه .

إن مقارنة بسيطة بينها وبين إحدى المنظمات الاصطناعية ، تكفي للبرهنة على ذلك بكل وضوح وجلاء : من المعلوم أن الجمهورية التركية ، سعت سعياً حثيثاً لتكوين منظمة سياسية تجمع بينها وبين الدول البلقانية . وقد نجحت في مسعاها مدة من الزمن ، إذ توصلت إلى تكوين « الحلف البلقاني » المعروف . وقد عقدت الدول الداخلة في هذا الحلف ، عدة مؤتمرات دورية ، تبودلت خلالها الخطب الرنانة ، وألفت اللجان الكثيرة ، واتخذت المقررات الهامة ، غير أن هذا الحلف لم يعمر طويلاً ، ودخل في خبر كان . والآن ، انشطر أعضاء هذا الحلف إلى معسكرين متنابذين ، وأخذوا يتخاصمون أشد اختصام .

وذلك لأن هذا الحلف كان يضم دولاً مختلفة ومتخالفة من حيث اللغة والتاريخ

والنزعات القومية ، والمنافع الأساسية . . ولم تتحالف هذه الدول بعضها مع بعض إلا بتأثير بعض الظروف السياسية التي كانت طرأت على العلاقات الدولية ابان عقد الحلف المذكور .

فكان من الطبيعي أن ينفرط عقد هذه الدول المتحالفة ، حالما تتغير تلك الظروف السياسية ، وكان من الطبيعي أن تسارع ـ بعد ذلك ـ كل واحدة منها إلى إعادة النظر في موقفها وسياستها ، على ضوء الأحوال العالمية الجديدة .

ولا حاجة إلى القول ، إن أحوال جامعة الدول العربية تختلف عن كل ذلك اختلافاً جوهرياً : لأن الروابط التي تربط الدول العربية بعضها ببعض ، ليست من نوع الظروف الطارئة أو المنافع العارضة ، بل هي من نوع العوامل الأساسية الدائمة التي تتصل بمشاعر شعوبها ، وتنبثق من أعماق نفوسها . فإن هذه الروابط تتولد ـ من حيث الأساس ـ من « وحدة اللغة والتاريخ » ، وتتقوى ـ بوجه خاص ـ بكثير من العوامل التي تنضم إلى هذه الوحدة وتدعمها ، مثل « الاتصال الجغرافي » ، و « الترابط الاقتصادي » ، و « التجاوب العاطفي » . ومن المعلوم أن « التجاوب العاطفي » ينجم عن « مماثلة المحن والآلام ، والمشاكل والمخاطر والأماني والآمال » . . . في الماضي والحال والاستقبال .

فنستطيع أن نؤكد أن جامعة الدول العربية لم تتألف بتأثير ظروف سياسية طارئة . بل ـ بعكس ذلك ـ انها تكونت تحت تأثير عوامل قومية عميقة وتيارات طبيعية دائمة ، فلا شك في أن هذه العوامل التي تضافرت على تكوينها قبل بضعة أعوام ، ستستمر على تغذيتها ، وتقويتها وتنميتها على الدوام .

ولهذا السبب ـ ولهذه الملاحظات ـ قلت وأقول : إن جامعة الدول العربية منظمة طبيعية قوية ، وعضوية حية نامية . وأرى لزاماً عليّ أن أقول ـ في الوقت نفسه ـ إن هذه المنظمة لا تزال في بدء تكوينها ، وهذه العضوية لا تزال في مقتبل عمرها ، فلا يزال أمام جامعة الدول العربية مجالات واسعة من النمو والتطور والتقدم .

إن هذه الجامعة قد تتعرض ، في المستقبل ، إلى بعض الأزمات المتأتية من كيد الأعداء والموتورين ، وقد تصاب ببعض الخدوش والجروح . . غير أني أعتقد أن في روح العروبة التي تغذيها وتنميها على الدوام ، من القوة والمناعة ما يكفل لها التغلب على كل ما يمكن أن يعترضها من الأزمات والعقبات .

لا داعي لليأس . . .

كان الأستاذ أحمد أمين قد نشر في العدد ٤١٥ من مجلة الثقافة التي تصدر بمصر القاهرة ـ مقالاً تحت عنوان « مأساة » ذكر فيه كتاباً تلقاه من صديق سوري ـ عن بعض الحوادث التي حدثت في سورية إذ ذاك(٤) ـ ثم قال :

لقد قرأت هذا الكتاب وقرأته فطفر الدمع من عيني حزناً على حالة هذه البلاد .

ليست هذه الحالة ـ يا صديقي ـ هي حالة سوريا وحدها ، بل حالة الشرق كله ، وعندنا مثل ما عندكم .

عندنا مثل ما عندكم . . . لا يستطيع مصلح جادّ أن يُتم إصلاحه حتى تتألب عليه الجهات المأجورة والمضللة وذوات الغرض فترميه بأشنع التهم حتى يضطر إلى الفرار من الميدان تاركاً الدار تنعي من بناها .

عندنا مثل ما عندكم . . . تتحكم فينا شهوة الحكم ، وتقضي على كل منطق وعقل وخلق ، ولا تتورع الأحزاب أن تحارب بالباطل فتقلب الصحيح فاسداً ، والفاسد صحيحاً ، ولا تخجل من أن تسمي الأبيض أسود والأسود أبيض ، بل لا تخجل من أن تسمي الشيء الواحد أبيض وأسود في زمنين لغرضين ، ولا تتعظ بما يجري في الأمم الحية من تحكيم المصلحة القومية وتقديمها على المصلحة الحزبية وتفاهم رؤساء الأحزاب إذا حزب الأمر وعظم الخطب .

---

(٤) « الحوادث » المشار إليها هي خروج الطلاب في دمشق بتحريض من الاخوان المسلمين ، في مظاهرات عدائية ضد الحصري ، هاتفين : « لا إله إلا الله ، الحصري عدو الله ! » مرغمين الحصري على تقديم استقالته من مستشارية وزارة المعارف ومغادرته دمشق .

عندنا مثل ما عندكم . . . تلعب الأحزاب بالطلبة ويتخذونهم أداة لقلب حكومة ، وقيام حكومة ، ولا يرعون الله في حق ولا علم ولا خلق ، ويسفكون دمهم لمصلحتهم ، ويضحون بعلمهم لأهوائهم ، لا فرق في ذلك بين حزب وحزب ، وعهد وعهد .

عندنا مثل ما عندكم . . . تلعب التيارات الخفية باسم الوطنية ، فمن يخشى زوال نفوذه التجاري يحارب الاستقلال ، ومن يخشى على نفوذه السياسي يؤيد الاحتلال . والبلاد تصاب بالانحلال في دينها ، في خلقها ، في اقتصادياتها ، في عقلياتها ، حتى لا وحدة في أي شيء ، والحكومات تشكو مُرّ الشكوى من شعوبها ، والشعوب تشكو مُرّ الشكوى من حكوماتها ، ولا تضامن ولا تعاون ، وإنما انحلال أثر انحلال .

عندنا مثل ما عندكم . . . رجال دين يطلبون الدنيا ، ثم لا يهيئون أنفسهم للدنيا كما تتطلب الدنيا .

عندنا مثل ما عندكم . . . وزارة تأتي فتبدأ في الاصلاح فلا تلبث أن تذهب وتأتي وزارة فتهدم ما بنت وتبدأ من جديد ، ولا نزال في بناء وهدم وبناء وهدم ، حتى لا يتم بناء ولو كان كوخاً .

عندنا ـ يا صديقي ـ مثل ما عندكم في كل شيء ، ففي كل حارة مأتم ، وفي كل شارع جنازة . واعذرني إذا يئست فقلت إن الشرق لا يصلح إلا بمعجزة .

أحمد أمين

وعندما اطلع « أبو خلدون » على هذا المقال ، أرسل إلى الأستاذ أحمد أمين رداً تحت عنوان « لا داعي لليأس » وهذا هو نص الرد المذكور :

إلى الأستاذ أحمد أمين بك .

لقد قرأت المقال الذي نشرتموه في الثقافة ، تحت عنوان : « مأساة » .

وبعد الشكر على العاطفة الأخوية التي أبرزتموها نحوي أرى من واجبي أن أبدي بعض الملاحظات على روح التشاؤم الذي أظهرتموه فيه .

فإنكم بعد أن وصفتم ـ لمكاتبكم السوري ـ آثار الأنانية المستحوذة على النفوس ـ في مصر كما في سورية ـ وصفاً مؤثراً ، ختمتم المقال بالكلمات التالية :

« واعذرني إذا يئست ، وقلت : إن الشرق لا يصلح إلا بمعجزة » .

وأنا بدوري لأرجو أن تعذروني إذا خالفتكم في هذا المضمار ، فقلت لكم بلا تردد : كلا ، أيها الأستاذ ، أنا لا أرى أي مبرر لليأس من الصلاح .

لأنني لا أزال أؤمن إيماناً راسخاً ، بأن سورية ومصر وسائر البلاد العربية سائرة نحو الصلاح ، بالرغم من جميع الأزمات الأخلاقية والاجتماعية والسياسية التي تنتابها في الحالة الحاضرة ، وبالرغم من جميع العقبات والمهاوي التي ستعتري طريقها في مستقبل الأيام .

ولا أزال أؤمن إيماناً راسخاً بأن الأمة العربية ستصل إلى المكانة التي تصبو إليها ، بفعل طبيعتها ، وبجهود أبنائها المخلصين ، دون أن تحتاج إلى معجزة من المعجزات .

إن المساوىء الأخلاقية والنواقص الاجتماعية التي ذكرتموها . . إني أعرفها حق المعرفة ، وأشعر بمخاطرها أعمق الشعور . فقد أكسبتني ظروف حياتي الفعالة خبرة واسعة بها ، وأطلعتني على الكثير من خباياها .

إني أعرف أن داء الأنانية متفش في جميع الأقطار العربية ، والتضامن في سبيل الخير العام يكاد يكون مجهولاً فيها . ولا أجهل أن هذه الأنانية الطاغية تكوّن تربة خصبة جداً لتغذية الدسائس والمؤامرات ، التي كثيراً ما تضحي بالمصالح العامة على مذبح الأغراض الشخصية .

كما أعرف أن النزعة القومية والوطنية ، لم تكتسب بعد - في أي قطر من الأقطار العربية - القوة الكافية لكبح جماح الأهواء والأنانيات ، ولم تتجه بعدُ الاتجاهَ اللازم للحيلولة دون نجاح الدسائس والمؤامرات .

وأعرف أن الأغراض الشخصية كثيراً ما تتقنع بقناع خداع من المظاهر الوطنية أو الدينية ، وتصبح بذلك أشد ضرراً على المصالح القومية .

إني أعرف كل ذلك .

ومعرفتي بكل ذلك ، لم تكن من نوع المعارف النظرية التي تتكون من التفكير المجرد ؛ بل هي من نوع المعارف العملية ، التي تنبثق من دروس الحياة الحقيقية .

لأنني قضيت شطراً كبيراً من حياتي في « العمل » بين ضروب من هذه الأنانيات ، وألوان من هذه الدسائس ؛ وكثيراً ما عرَّضت نفسي - بطبيعة الحال - إلى صدمات تلك الأنانيات ، وسهام تلك الدسائس .

ولا أنكر أن هذه الصدمات وتلك السهام كانت عنيفة ومؤلمة جداً في بعض

الأحيان حتى أنها كانت أخذت عدة مرات شكلَ مصائب ونكبات . ولا أكتم أن آثار البعض من تلك الصدمات ، لا تزال تثقل كاهلي منذ عدة سنوات .

ومع كل ذلك . . . أؤكد لكم كل التأكيد ، بأنني لم أرَ في هذه الأمور والأحوال كلها ما يستوجب اليأس أبداً ؛ ولم أستسلم من جرائها إلى التشاؤم أو القنوط في يوم من الأيام .

ذلك لأنني اعتقدت ـ ولا أزال أعتقد ـ أن هذه الاختلالات الأخلاقية والاجتماعية ، التي نتألم ونشكو منها ، لا تخرج عن نطاق الأزمات التي يجب أن تسمى « شبه طبيعية » ؛ لأنها من نوع الاختلالات الجسمانية والنفسانية التي تحدث عادة في بعض الأدوار من الحياة ، مثل الحميات والاختلالات التي ترافق الحمل والولادة والتسنين والبلوغ .

إن انتقال الشعوب والبلاد من الحكم الأجنبي إلى الحكم الوطني ، لا يمكن أن يتم بدون إحداث أزمات في نفوس الناس ، واختلالات في الأوضاع الاجتماعية ، لأن الحكم الأجنبي يترك آثاراً سيئة ، ويولد اعتيادات رديئة في نفوس المستسلمين له من ناحية ، ونفوس الثائرين عليه من ناحية أخرى . وهذه الآثار والاعتيادات تكون عميقة وراسخة ، بنسبة طول أمد الحكم الأجنبي من جهة وشدة الكفاح الوطني من جهة أخرى .

أنا لا أريد أن أتوسع في هذا المقام في تحليل هذه الآثار ، ووصف هذه الاعتيادات . ولكني أقول إنها لا يمكن أن تزول بمجرد زوال الحكم الأجنبي ، وانتهاء عهد الكفاح ضد ذلك الحكم ، بل أن ذلك يتطلب كفاحاً من نوع جديد تحت شروط جديدة .

وهذا الكفاح الداخلي ، الذي يجب أن يقوم ضد الأوضاع الراهنة والعادات الراسخة ، لا يقل صعوبة عن الكفاح الذي يقوم ضد السلطات الأجنبية ، بل ربما كان أشد صعوبة منه : لأنه يقترن عادة بتبلبل في الأفكار والآراء ، وتخالف في المنازع والاتجاهات ، وتنازع في الخطط والمناهج . . . كل ذلك بالاضافة إلى التنافس على الحكم أو على الصيت والجاه .

ومن الطبيعي أن هذه العوامل كلها تُحدث أزمات ومشكلات كثيرة ، مما لا يمكن التغلب عليها إلا بعد مرور مدة من الزمن كافية لإحداث « تخمر نفسي واجتماعي » خاص .

وأما موقف المفكرين والعاملين تجاه هذه الأزمات والمشكلات فيجب أن يكون

مماثلاً لموقف الطبيب تجاه المرأة التي تتلوى بآلام الحمل أو الوضع ، وتجاه الطفل الذي يلتهب بحميات التسنين ، وتجاه المراهقة التي تقترب من طور البلوغ . . . موقف تيقظ وتدبر دون قنوط ، موقف عمل ومعالجة دون قلق .

هذه هي زبدة عقيدتي الاجتماعية ـ وقولوا إذا شئتم : عقيدتي السياسية ـ في الأزمات المختلفة التي تجتازها البلاد العربية ، في الحالة الحاضرة .

*

إن هذه العقيدة ، قد تكونت لديّ منذ مدة طويلة ، بإلهام التاريخ ووحيه .

فإن كل ما أعرفه عن التاريخ البعيد والقريب والأقرب . . . التاريخ البعيد الذي اطلعت عليه من قراءة الكتب ، والتاريخ القريب الذي تتبعت سيره منذ بداية حياتي الفكرية ، والتاريخ الأقرب الذي اشتركت فيه خلال حياتي العملية . . . وخلاصة القول : كل ما أعرفه عن التاريخ بجميع أنواعه وأقسامه وأدواره ـ يشهد على صحة ما أقول ، ويقوي اعتقادي في هذه القضية .

ألقوا نظرات دقيقة على صفحات تواريخ الدول الحديثة التي انفصلت عن الدولة العثمانية ، منذ أوائل القرن الماضي ، من الدولة اليونانية إلى البلغارية فاليوغوسلافية . . . تروا أن جميعها اجتازت أزمات كثيرة ، لا تقل خطورة عن الأزمات التي نحن نتألم منها الآن . كلها ذاقت مرارة القلاقل والاضطرابات ؛ كلها أصيبت بطغيان الأنانيات ، ومنيت ببلبلة الاتجاهات ، كلها تعرضت إلى ألوان من الدسائس والمؤامرات .

قد يقال : إن زماننا هذا يختلف عن زمان نهوض تلك الأمم ونشوء تلك الدول اختلافاً كبيراً ؛ لأن الزمان الذي نعيش فيه الآن ، هو زمان سرعة البرق . والدور الذي نجتازه الآن هو دور إطلاق المدافع الصاروخية واستغلال الطاقات الذرية .

ولكني أقول ـ مقابل ذلك ـ إن امكانياتنا نحن أوسع بكثير من إمكانيات تلك الأمم ، وتاريخنا نحن أطول وأسمى من تاريخ هؤلاء .

ثم أزيد على ذلك ، فأقول : إن التخمر النفسي والاجتماعي الذي أشرت إليه آنفاً قد بدأ منذ مدة غير قليلة من الزمن ، وقد تقدم كثيراً . وأنا لا أشك بأن نتائجه ستظهر إلى العيان قريباً .

إن أمثال هذه التخمرات النفسية والاجتماعية تبقى ـ بوجه عام ـ خفية على

معظم أنظار المشاهدين ، وظهور نتائجها إلى العيان يكون مفاجأة بالنسبة إلى أكثر المعاصرين .

إني أستطيع أن أذكر كثيراً من الوقائع التاريخية التي توضح رأيي في هذا المضمار ، وتؤيده تأييداً تاماً .

هاكم مثالاً من تاريخ ايرلندا :

لقد قرأت ما كان كتبه الجغرافي الشهير « أليزه ركلوس » عن ايرلندا والايرلنديين ، في أحد مجلدات كتابه الضخم ـ الذي نشره في العقد التاسع من القرن الأخير : يسترسل المؤلف في وصف الأنانية المستحوذة على نفوس الايرلنديين ، ويؤيد قوله هذا بذكر كلمة كانت تسير مسرى الأمثال بين الانكليز :

« إذا أردتم أن تشووا ايرلندياً واحداً ، فوضعتموه على السفود ، وجدتم على الفور عشرات من بني جلدته يتطوعون لتدوير ذلك السفود فوق النار » .

ومن المعلوم أن الايرلنديين أدهشوا العالم بروح التضحية والتضامن الخارق الذي أظهروه في حركة الـ « شين فين » ، وذلك قبل أن يمضي على تاريخ هذه الكتابة ربع قرن !

وهاكم مثالاً آخر من تاريخ المانيا :

لقد قرأت في أحد مجلدات « قاموس المحاورات » فقرة مقتبسة من مقالة كانت نشرتها جريدة « التايمس » اللندنية ، عن ألمانيا ، عقب مؤتمر فرانكفورت . يصف محرر المقالة البلبلة التي حدثت في المؤتمر المذكور ، ثم يقول :

« إن هؤلاء القوم لا يزالون في حاجة إلى من يذكرهم على الدوام ، بأنهم ـ قبل كل شيء ـ ألمان » . وبعد ذلك يشير إلى السياسة التي سارت عليها الدول إزاء ألمانيا في مؤتمر فينا ، ثم يختم المقالة بهذه الكلمات : « يظهر أن هؤلاء فقدوا حتى قابلية الدفاع عن أنفسهم » .

هذا ، والمدة التي مضت بين انتشار هذه المقالة في جريدة التايمس ، وبين إعلان وحدة ألمانيا ـ بعد انتصارات « سادوفا وسه دان » كانت تقل عن عقدين من السنين !

وهاكم مثالاً آخر من تاريخ الشرق القريب ، كنت قد شاهدته بنفسي خلال شبابي :

توليت ـ في أواخر عهد عبدالحميد ـ ادارة أحد الأقضية التي أصبحت الآن جزءاً من الدولة البلغارية ، وبذلت جهوداً كبيرة لدرس أحوال القضاء وجمعت دلائل قاطعة

على سوء سلوك بعض الموظفين ، وقدمت إلى الوالي مشروع اصلاح عام ، يتضمن فيما يتضمنه من الأمور « فصل وتأديب هؤلاء المرتشين » . وبعد بعض المخابرات ، رأيت من الضروري أن أذهب إلى مركز الولاية ، لأشرح اقتراحاتي وأؤ يد طلباتي ، بأحاديث شفهية . فدخلت على الوالي ، وبدأت أسرد عليه بتفصيل وحماس « الدلائل القاطعة التي حصلت عليها عن ارتشاء هذا ، وسوء سلوك ذاك . . ولكني دهشت عندما رأيت الوالي يقابل ايضاحاتي بهذه الكلمات : « أعرف يا ابني ، أعرف أن هنا أيضاً ـ في مركزالولاية أيضاً ـ يوجد أمثال الموظفين الذين ذكرتهم . أعرف أنه يوجد بين الموظفين الذين يحيطون بي هنا ، العاجز والفاسق والسارق . ولكن ما العمل ؟ إني أغمض عيني على أعمالهم ، فيجب عليك أنت أيضاً أن تغمض عينيك . . » .

أنا لا أرى لزوماً ـ في هذا المقام ـ إلى شرح ما جرى بعد ذلك . ولكني أقول : إنه قد تيسر لي ـ بعد مدة ـ أن أرى الرجل الذي كان جابهني بهذا الاعتراف الفادح وأتحفني هذه النصيحة المخدرة ، قائداً لجيش الحرية الذي زحف على عاصمة الدولة العثمانية ، وخلع عبدالحميد ، وقضى على الحركة الرجعية الشهيرة . وأما المدة التي مضت بين هذا الزحف وتلك الملاقاة فقد كانت أقلّ من أربع سنوات !

*

إن الأمثلة التي ذكرتها آنفاً ، لم تكن من الأمور الشاذة ، بل إن في هذه اللحظة لا تزال تتوارد على ذهني عشرات من أمثالها ، من التاريخ القريب والبعيد ، في الشرق وفي الغرب .

ولذلك ترونني دوماً واسع الأمل وقوي الرجاء . فلا أزال أقول : إن يومنا أحسن وأصلح من أمسنا ، وغدنا سيكون أحسن وأصلح من يومنا . . . وذلك بالرغم مما يمازج يومنا من المساوىء والمآسي ، وبالرغم مما يحدق بغدنا من المشاكل والمخاطر .

وعندما أقول : يومنا هذا أحسن وأصلح من أمسنا ، لا ألقي الكلام جزافاً ، بل أقول ذلك عن تفكير تام ، وبعد تأمل عميق ، ومستنداً إلى وقائع وذكريات كثيرة .

فإني لا أزال أذكر العهد الذي كانت فيه مصر تجهل القضية العربية جهلاً يكاد يكون مُطبقاً ، وتعرض عنها إعراضاً تاماً ، إن لم تلعنها وتخاصمها أحياناً .

ولا أزال أذكر الدهشة التي اعترت جماعة من طلاب الجامعة المصرية الذين زاروا العراق قبل نحو ستة عشر عاماً ، عندما رأوا أن الطلاب العراقيين يعتبرون أنفسهم عرباً .

ولا أزال أحتفظ بما كتبه أحد المعلمين العراقيين عن الفكرة العربية ، مدعياً بأنها « دسيسة سورية » ابتدعها رهط من السوريين لينعموا بخيرات العراق . . ولا أزال أذكر الترحيب الذي كانت تلقاه أمثال هذه الدعايات في كثير من الأوساط .

ولا أزال أذكر الدعايات التي كانت تُنشر في لبنان ، لإيهام الناس بأنهم لا يمتون إلى العروبة بصلة ، وبأنهم من أحفاد الفينيقيين إن لم يكونوا من نسل الصليبيين .

ولا أزال أذكر الكتابات الصادرة من قلم أحد الوزراء في سورية ، وهي تنعت الثورة العربية بوجه عام والثورة السورية بوجه خاص بأشنع النعوت ، وتدعي بأنها أضرت البلاد ، وأخرت العمران .

إني أذكر كل ذلك وأذكر المئات من أمثال ذلك ذكراً واضحاً وقوياً . . فأقول بلا تردد : إننا ـ خلال ربع قرن ـ اجتزنا مراحل خطيرة ، وذللنا عقبات كثيرة ، ربما كانت من أدق المراحل وأخطر العقبات . والشوط الذي قطعناه في هذه السبل الوعرة ، بعد تلك البداية الشاقة ، يكفي لشحذ عزيمتنا على مواصلة السير ـ واجتياز العقبات الباقية ـ بخطى أسرع وأثبت من الخطوات السالفة ، بدون تشاؤم ولا قنوط .

وقد يقول لي قائل : ولكن ماذا عن الجهود التي يذهب معظمها سدى ـ ضحية للأغراض الشخصية ـ والفرص الثمينة التي تضيع بين الدسائس الدنيئة . . . ؟ .

غير أني أقول بلا تردد : هذه من سنن الحياة التي لا رادّ لها .

فإن الحياة كفاح ونضال بكل معنى الكلمة ؛ وهو يتطلب ـ بطبيعته ـ الموت والفناء للكثير من الأشياء .

وركب التقدم يحتاج على الدوام إلى وقود كثير من الجهود والدموع والدماء .

وإذا نظرنا إلى حقائق الأمور بنظرات فاحصة دقيقة ، استطعنا أن نقول : إن بهجة الربيع ، ما هي إلا رداء فضفاض يستر عن الأنظار فناء الملايين من البذور وموت الملايين من الأحياء .

فلا يجوز لنا ـ والحالة هذه ـ أن نطمع بالحصول على ثمرات فعلية من جميع الجهود التي نبذلها ، بل يجب علينا أن لا نتلهف كثيراً على ما يبقى منها ، بدون ثمرة ظاهرة .

ولا شك في أن البيئة التي نعمل فيها ـ في هذه المرحلة من تطورنا الاجتماعي والسياسي ـ لم تكن من الأتربة الخصبة التي تثمر فيها الجهود الصادقة أوفر الثمرات ،

بل هي من الأتربة الضعيفة التي يفنى فيها قسم كبير من البذور .

ولكن علمنا بهذه الحقيقة ، لا يجوز أن يلقينا في بحر التشاؤم والقنوط . . بل يجب أن يحدو بنا إلى مضاعفة العمل لاصلاح وتسميد ذلك التراب ، مع المبالغة في إحسان البذار ، للحصول على القدر اللازم من المحصول ، بالرغم من كثرة البذور التي ستفنى تحت التراب .

الاعمال القومية لساطع الحصري

طبعة خاصة يصدرها
مركز دراسات الوحدة العربية

١ ـ آراء واحاديث في الوطنية والقومية
٢ ـ أحاديث في التربية والاجتماع
٣ ـ صفحات من الماضي القريب
٤ ـ العروبة بين دعاتها ومعارضيها
٥ ـ محاضرات في نشوء الفكرة القومية
٦ ـ آراء واحاديث في العلم والاخلاق والثقافة
٧ ـ آراء واحاديث في القومية العربية
٨ ـ آراء واحاديث في التاريخ والاجتماع
٩ ـ العروبة اولاً!
١٠ ـ دفاع عن العروبة
١١ ـ في اللغة والأدب وعلاقتهما بالقومية
١٢ ـ حول الوحدة الثقافية العربية
١٣ ـ ما هي القومية
١٤ ـ حول القومية العربية
١٥ ـ الاقليمية جذورها وبذورها
١٦ ـ ثقافتنا في جامعة الدول العربية
١٧ ـ ابحاث مختارة في القومية العربية

ابو خلدون ساطع الحصري

- ولد في صنعاء اليمن. وهو من عائلة عربية اصلها من الحجاز وقدمت الى حلب في القرن التاسع الهجري
- عمل في السلك الاداري العثماني في البلقان حيث درس على الطبيعة نشوء القوميات البلقانية قبل الحرب العالمية الاولى
- التحق بالملك فيصل الاول واصبح وزيراً للمعارف في الحكم الفيصلي بدمشق
- فاوض الجنرال غورو قبيل معركة ميسلون
- خرج من سوريا مع الملك فيصل الاول، والتحق به بعد ذلك في العراق حيث تولى شؤون المعارف والثقافة
- جُرد من جنسيته العراقية وأُخرج من العراق عام ١٩٤١، وذلك لتأييده للجانب العراقي في الحرب العراقية - البريطانية
- عمل مستشاراً للجنة الثقافية في جامعة الدول العربية
- أسس معهد الدراسات العربية العالية في القاهرة عام ١٩٥٣ واصبح مديراً له، والذي سمي فيما بعد معهد البحوث والدراسات العربية
- توفي في بغداد عام ١٩٦٨ ودفن في مقبرة الامام الاعظم.

مركز دراسات الوحدة العربية

بناية «سادات تاور» شارع ليون
ص. ب: ٦٠٠١ - ١١٣ - بيروت - لبنان
تلفون: ٨٠١٥٨٢ - ٨٠١٥٨٧ - ٨٠٢٢٣٤
برقياً: «مرعربي»
تلكس: ٢٣١١٤ مارابي

20.DEC.1993

او ما يعادلها